حين أشتاق



الكتـــاب : حين أشتاق

المــؤلــف : محمود طايل

تـدقيق لغـوي: محمد طايل

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـايـر 2019

رقـم الإيـداع : 2018/26900

I.S.B.N : 978-977-6542-32-7

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع


رواية
حين
أشتاق
قد تكون النهاية .. وقد تكون البداية

محمود طايل


عصير
الكتب
للنشر و التوزيع


عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾

صدق الله العظيم

إهداء

إلى شهداء سوريا وفلسطين..

إني لأنحني إجلالًا وخجلًا لأرواحكم..

دماؤكم أطهر دماء سالت على وجه الأرض..

لكم الله ولمن كانوا السبب لهم من الله ما يستحقون..

يومًا ما ستصبح دماؤكم لعنة عليهم..

تنويه هام

للأسف بعض المشاهد في الرواية شبيهة لواقع مؤلم حدث بالفعل.

(1)
لحظات حاسمة

أخذ ذلك الشيخ الذي انتشر الشيب في معظم شعر رأسه ولحيته، يلهث من فرط الانفعال، والذي كان واضحًا من هيئته أنه في أوائل العقد الخامس من عمره، وهو يخفي ولديه تحت الفراش في غرفة نومه، وصوت طرقات على باب المنزل تزداد عنفًا، وطلقات من الرصاص تخترقه، زوجته ترتجف رعبًا وهي تنتحب، قائلة في ذعر بلكنتها السورية:

- أسرع بالله عليك يا (فراس)، فسوف ينهار الباب أمام قوات النظام، ولن يرحموهما، إنهم كلاب لا يعرفون الرحمة.

كان الرجل ينظر خلفه بين الحين والآخر، ينتفض ويلهث من فرط خوفه على ولديه وزوجته، التي يخشى عليها وعلى هتك عرضها منهم، فلن يتورع أحدهم عن فعل كل شيء، وأي شيء مهما بلغ قبحًا وجرمًا، دون وازع أخلاقي وبلا رحمة ، وَلَدَيه تَسيلُ على وجنتيهما دموع رعب، يعجز أي بليغ عن وصفها، يرتجف جسديهما الصغير بلا توقف، صدريهما يعلوان ويهبطان بشكل ملحوظ، وضع أبوهما فوقهما ملاءة، واعتدل عازمًا وزوجته مغادرة غرفة النوم، حتى لا يدخل تلك الذئاب البشرية عليهم، حرصًا على سلامة ولديهما، صك الباب من خلفه، وما كاد يفعل حتى انهار الباب الرئيسي للمنزل في تلك اللحظة، واخترقه أربعة رجال من قوات النظام شاهرين أسلحتهم، صارخين في غضب عارم، أن ارفعا أيديكما واستسلما، فالتصقت زوجته بالحائط مطلقة شهقة عالية، أما (فراس) فقد جثا على ركبتيه، أغمض عينيه رافعًا يديه إلى أعلى، مرددًا في رعب:

- للّه الأمر من قبل ومن بعد.. للّه الأمر من قبل ومن بعد.. أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

جعلت القوات تفتح الغرف بأقدامهم في عنف، مطلقين الرصاصات بشكل عشوائي قبل فحصها بأعينهم، وأحدهم يصرخ بهما بلكنة غير عربية، لم يفهماه بالطبع، فضرب الرجل بقدمه في رأسه انهار على الأرض متأوهًا، وذلك الجندي لا يزال يصرخ بلغته الروسية، والتي عجز (فراس) وزوجته عن الرد عليه لجهلهما بلغته، فتقدم أحدهم من الرجل وسأله بلكنة مصرية صارمة:

-- ألا يوجد هنا أحدٌ غيركما؟

طفق الرجل يهز رأسه نافيًا وجسده ينتفض في قوة، يحمي وجهه بين يديه، دنا منه المصري، وركله في بطنه صارخًا:

- يا أولاد الخنازير ألا تعلمون من هو رئيسكم الذي تحرضون الناس عليه؟ تظنون أنفسكم أصحاب قضية، وتزرعون الفتنة بين الناس لمقاومتنا.. ها أنت ذا تحت أقدامنا أنت وزوجتك.. أحدهم وشي بك، فأرنا ما أنت فاعل.

كان المسكين يتلوى على الأرض، باكيًا من فرط الألم، وزوجته تلتصق بالحائط وجسدها كله يرتجف، كقطعة من

القماش في مهب الريح، لا تلو على النظر خلفها، دموعها تنهمر في غزارة بلا توقف، قدماها تكادان تخذلاها، فما عادتا قادرتان على حملها، دنا المصري منها وجعل يتحسس جسدها كله ويهمس في أذنها، مومئًا إلى الغرفة التي يستتر بها ولديها تحت الفراش:

- ما رأيك لو ضاجعتك في تلك الغرفة؟ أنا عاشق للنساء العاهرات مثلك.

المرأة لا تزال تنتفض وتنتحب، لا تقدر على فعل شيء، فأسلحتهم مصوبة إلى رأسها ورأس زوجها، لكن (فراس) غلت الدماء في عروقه، حين رأى هذا المشهد، فانقض على الرجل في ثورة كما الأسد الهصور، متجاهلًا كل السلاح المصوب إلى رأسه، صارخًا:

- اتركها يا ابن الكلب يا كافر.

ما كاد يمسك به، حتى هوى أحد الأربعة على مؤخرة عنقه بمؤخرة سلاحه بضربة عنيفة هزت كيانه كله، وانهار على إثرها تحت قدمي المصري، الذي انهال عليه بالضرب بقدمه في غضب، صارخًا به بأبشع الألفاظ، تشبث (فراس) بقدم هذا الأخير، لم يتركها إلا وقد قطع جزءًا

من لحمها بين أسنانه، فعاد الجندي يهوى على رأسه مرة أخرى بسلاحه، خارت قواه، ومادت به الأرض، فانحنى نحوه المصري، دنا من وجهه، بصق به صارخًا في جنون:

- وحياة تلك العاهرة التي تقف خلفي، لأجعلنك تندم على ما فعلت معي، وتأكل من لحمها حية، وتسجد لي كي أرحمك...

وأشار إلى قدمه، مردفًا في غضبٍ هادرٍ:

- وستسجد.. ولن أرحمك.

هوى بقدمه فوق وجهه، فسالت الدماء من أنفه وفمه في غزارة، لم يعد قادرًا على الحركة، زوجته تخشى مجرد النظر إليه، فهي تعلم مصيرها الأسود إن فعلتها، حتى وإن لم تفعل، فالمصير لا ريب أسود، ما داموا في حضرة هؤلاء الأوغاد، وضع جندي آخر سلاحه أرضًا، وجعل ينزع ملابس (فراس)، الذي استسلم له عاجزًا، جرده الحقير من كل ملابسه دون أدنى مقاومة منه، ثم ربط يديه خلف ظهره، انحني المصري نحوه وجعل يوجه إليه لطمات عنيفات سريعات على وجهه، حتى يفيقه من غيبوبة وشيكة، وكان المسكين يجاهد قدر استطاعته من

أجل البقاء متيقظًا، أحضر أحدهم زجاجة مياه ناولها للمصري، قائلًا بالروسية:

- خذ يا (أحمد).

تناولها منه، سكبها في وجه (فراس)، الذي عاد إليه بعض وعيه الذي كاد يغيب، فسأله (أحمد):

- أين يخفي رجال المقاومة أسلحتهم يا شيخ (فراس)؟

لم يجبه الرجل، فابتسم (أحمد) في سخرية، قائلًا:

- أعلم أنك لن تنطق، لكن أعدك أن لدي الطريقة التي تجعلك تشي حتى بأبويك.

ناوله أحد الرجال عصا قصيرة، هوى بها فوق جسده العاري، والرجل يصرخ في ألم رهيب، وهو يدور على الأرض:

- ارحمني الله يرحمك.. ارحمني الله يرحمك.

ظل (أحمد) يهوي عليه بالعصا الغليظة، والرجل يصرخ بلا توقف، لكنه لم يمنحه ما يرغبه أو يريحه، فأقلع عن ضربه، ثم نظر إلى زوجته، جذبها من حجابها

في عنف، صرخت في ألم، نزع عنها الحجاب، ليكشف عن شعرها المجعد، والذي ينتشر فيه بعض شعيرات بيضاء، تنتحب المسكينة في يديه يقيد معصميها خلف ظهرها، يلتصق بها من الخلف، ويمسك برأسها ثم يلعق وجهها بلسانه، يزحف (فراس) نحوه يقبل قدمه، باكيًا يترجاه أن يتركها وحالها، وألا يمسها بسوء والآخر يدفع بوجهه بعيدًا عنه، يبتعد بزوجته عنه حتى يجعله يتمكن من رؤية ما يفعله معها لاستفزازه، كي يبوح بما لديه، فكان الحقير يعبث بجسدها، كله يرفع عنها ثوبها يعريها أمامهم، وهي تبكي وتستحلفه ألا يفعل، زوجها ينتحب يشيح بوجهه عن هذا المشهد البشع ويصرخ، لكن لم يستجب أحدهم لصراخه، ولا توسلاته إليهم، وهو يقول في ضراعة وانهيار:

- أتوسل إليكم إنها لا ذنب لها.. الله يحفظك دعها تذهب إنها امرأة.. أليس في قلوبكم رحمة.

كان من بينهم شاب يبدو عليه الامتعاض مما يفعلون، فقد كان ينظر إليهم شذرًا، دنا من (أحمد)، وقال بلغة عربية ركيكة:

- يكفي هكذا يا (أحمد)، افعل ما تشاء، معه لكن دع المرأة وشأنها.

دفع (أحمد) المرأة، هوت على الأرض متأوهة، انحنى نحوها ذلك الممتعض، ستر ساقيها العاريتين، حاول الآخران الهجوم عليها لكنه استوقفهما، هاتفًا بهما بالروسية في صرامة شديدة:

- لن يمسسها أحدكما.

حدجاه في دهشة، لكنهما لم يعترضا، أما (أحمد) فقد هتف به في غضب:

- وهل تعتقد يا رقيق القلب، أن هذا الحقير سينطق بكلمة، حتى لو مزقناه تمزيقًا؟ أمثال هؤلاء يعتقدون أن الجنة قد صنعت خصيصًا لهم، في سبيل جهادهم لنا.

من الواضح أن ذلك الروسي يفهم ما يقوله (أحمد) جيدًا، لذا فقد أجابه بعربيته الركيكة:

- حتى ولو لم ينطق بكلمة، فلا ذنب للمرأة بما يحدث، فلا تمس منها شعرة.. كنا نسمع كثيرًا عن نخوة العرب فماذا أصابكم؟ فقدتم نخوتكم وشرفكم في سبيل سراب لن تصلوا إليه.

اتسعت عينا (أحمد) دهشة، وهو يستمع إلى هذا الكلام من الروسي، الذي لم يكن يراوده، ولو حتى في أحلامه أن يسمع منه مثل هذا الكلام، تغضنت جبهته، قائلًا في ذهول:

- ما هذا الذي أسمعه منك يا (سوفيتش)؟

لوح (سوفيتش) بيده، هاتفًا في حنق:

- أقول ما يجب أن يقال أيها العربي الحقير.. الرجل عندك افعل معه ما تشاء، ولا تمس المرأة بسوء.

ضغط (أحمد) أسنانه في غيظ، ثم أشاح بوجهه عنه، صرف بصره تلقاء المرأة، حدجها بنظرة تقطر غضبًا وكرهًا، ثم التفت إلى (فراس)، جعل يفرغ فيه جام غضبه وسخطه، فكال له الركلات واللعنات، يصرخ الرجل لكنه لا يزال على صموده، أشار للجنديين الروسيين أن يمسكا فراس، أمسكاه فقيدا حركته تمامًا، انحنى هو نحوه وشرع يضع العصا في مؤخرته، اتسعت عينا الروسي (سوفيتش) ذعرًا، لكن توقف (أحمد) بغتة حين خرج الطفلان من الغرفة، هجما عليه دفعاه بعيدًا عن والديهما، احتضناه وهما يبكيان، ويقول أحدهما:

- ابتعد عنه يا كلب يا ابن الكلب إنه أبانا.

انبسطت أسارير (أحمد)، انفجر ضاحكًا وهو يصفق بيديه كالأبله، وقال في سعادة:

- عظيييييييييم.. الآن أستطيع أن أجعله يتكلم.

جذب أحد الطفلين من شعره، صوب سلاحه نحو رأسه، هاتفًا:

- والآن أتتكلم أم تقرأ فاتحتكم التي تزعمون على ابنك.

بكي الرجل قهرًا، وقد شاع اليأس في نفسه، كذلك كان حال زوجته، التي زحفت في صعوبة، وقبلت قدم (أحمد) تتوسل إليه:

- استحلفك بالله ألا تفعل، إنهما طفلان فارحموهما.

داس فوق رأسها بقدمه، أسكتها ثم صرخ بزوجها في جنون وبغضب هادر:

- والآن نتكلم، أم أجعلك تتحسر على ولدك؟

(فراس) ينتحب وينطق الشهادة، والزوجة لا تلو على شيء، والطفل يغمض عينيه ينتظر الرصاصة في أية لحظة،

والآخـر يحتضـن والـده ويبكـي، الروسـيان الآخـران لا يبـدُ عليهمـا أي انفعـال سـوى البرود.. برود كبرودة طقسـهم..

(سوفيتش) ممتعض.. ساخط.. يتابع في صمت..

سبابة (أحمد) تعتصر الزناد ، و........

وتنفجـر رأس الطفـل تتحـول إلى أشـلاء في لحظـة واحدة، صرخ (فراس) وجعل يدور حول نفسه على الأرض يصرخ في لوعة، زوجته تصرخ أيضًا لكنه يدوس على رأسها بقوة، لحظات وغابت عن الوعي، ما عاد قلبها يتحمل أكثر من هذا، أما الصغير الآخر فقد انقض على (أحمد) شرع يضربه بيديه الصغيرتين، لكن.أني تبرحان ذلك الخنزير ضرباتـه، وهـو بالـكاد يشـعر بـه كلـه، دفعـه عنـه في عنـف ليسقط عنـد أقدام الجنـود الروس، ليهـوي أحد الباردين على رأسـه بمؤخرة سـلاحه، فيفقده الوعي بلا مبالاة، على حين صـرخ (أحمد):

-أقسـم لـك بالـذي تعبدونـه أنتـم، إن لم تخـبرني بـكل شـيء عـن أماكـن تواجـد رجالـك، وأيـن تخفـون أسـلحتكم، لسـوف أقتلهـم جميعًـا أمـام ناظريـك، وسـأبقي عليـك لتتحسـر عليهـم مـا بقـي لـك مـن العمـر.

(فراس) لا يزال يصرخ، ينادي ربه ولم يعد يشعر بما يدور من حوله، لم يفقد وعيه، لكنه فاقد كل إدراك، ثارت ثائرة (أحمد)، يمم فوهة سلاحه نحو الصغير الآخر، صارخًا في غضب:

- أنت مَن يريد هذا.

و......

وتبدلت الأمور في لحظة..

تبدلت حين صوب (سوفيتش) سلاحه نحو (أحمد)، وانطلقت من سلاحه رصاصة، مرقت بجوار قلبه، جحظت عيناه عن آخرهما ذهولًا وألمًا، ثم خر أرضًا، ما أردته قتيلًا، لكنه غاب عن الوعي، وفي غمرة شرودهما وذهولهما من المفاجأة انطلقت رصاصات (سوفيتش) لتحصد روحي الجنديين الروسيين، ينظر (فراس) لهذا الأخير، دموعه تسيل على الأرض، وهو يعجز حتى عن رفع رأسه عنها، وكل خلجة في جسده تتساءل عن أي سبب مقنع لما فعله الروسي (سوفيتش)، الذي انحنى نحوه يفك قيوده، ثم يعينه على ارتداء ملابسه، والرجل ينظر له في بلادة، غير مستوعب لما يدور من حوله، كأنما الصدمات أفقدت المسكين عقله،

وما أن أتم الروسي مساعدته في ارتداء ملابسه، حتى رفع يده له بتحية عسكرية، ثم قال بعربية ركيكة:

- لحظات وتنصرف القوات من المنطقة، حاول أن تختفي داخل المنزل بأي وسيلة، وأنا سأحاول إبعادهم عن هنا، لو عثروا عليكم سيقتلونكم بلا هوادة.

لم ينطق (فراس) بشطر كلمة، لكنه ينظر إليه ذاهلًا، وعيناه تشيان بألف سؤال، أدرك (سوفيتش) حيرته، فأجاب على الفور بكلمات زادت من ذهول الأول وحيرته، إلى أقصى حد:

- أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله.

قالها ثم أشاح بوجهه عنه، حين اغرورقت مقلتاه بالدموع، وغادر على الفور، أما (فراس) فقد توجه إلى ابنه الصريع، انحنى يقبل قدمه، مصدرًا نشيجًا مكتومًا قائلًا بصوت متهدج:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون..



جحظت عينا (أحمد) عن آخرهما، وهو يتراجع إلى الخلف، يتملكه رعب بلا حدود من ذلك الطفل..

طفلٌ بلا رأس يقترب منه في بطءٍ شديد، يحمل بيده بلطة..

لقد كان ذلك الطفل الذي فجر رأسه أمام والديه، وحين تعثر، وعجز أن يلم شعث حاله، سقط فهوى الطفل على ساقه اليسرى بالبلطة بترها، وتفجرت الدماء منها في غزارة، جعل يصرخ، لكنه لم يرحم الطفل من قبل كي يرحمه شبح الطفل الآن، إذ هوى بضربة أخرى على يده اليمنى فأطاح بها، كأنما ينفذ فيه عقاب المفسدين في الأرض بقطع يده وساقه من خلاف، انتابته نوبة صراخ عارمة، أفاق على إثرها من سباته، ليجد نفسه يرقد على فراش وثير جسده مغطى بملاءة، جعل يجوب ببصره في الغرفة، ويشخص بهؤلاء الرجال الذين يحيطون به، يحدجونه بنظرات تقطر قسوة وبُغضًا، من بين تلك الوجوه ميز وجه (فراس)، والذي كان يحدجه بنظرات هي المعنى الحقيقي للكره، يعقد ساعديه خلف ظهره، وما أن ثبتت عليه عينا (أحمد)، حتي بصق (فراس) في وجهه، قائلًا في غضب حقيقي:

- أظلمت الدنيا بعودتك لوعيك يا ابن العاهرة.

ارتجفت كل خلجة من خلجات (أحمد)، حين ميز وجه (فراس) من بينهم، سالت الدموع على خديه يطلب منه رحمة لا تحق له بنظرات متوسلة، لأنه يعجز عن الكلام من فرط رعبه، شعر ببوله يخرج منه بلا إرادة فيسيل إلى مؤخرته، حاول إخراج يده اليمنى ليمسح بها دموعه، التي سالت داخل أذنيه ، و....

وجحظت عيناه عن آخرهما، وأطلق شهقة رعب هائلة، فما عادت يده اليمنى في مكانها..

لقد بُترت..

وابتسم (فراس) في كراهية، وجعل يهز رأسه، قائلًا:

- أجل أجل.. لم تعد هناك.. غادرت جسدك ورحلت من قذارتك..

ثم أشار إلى قدمه، مردفًا في سخرية:

- قدمك أيضًا خرجت ولم تعد.. هجرتك يا لعين.. (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم

وأرجلهم من خلافٍ أو ينفوا من الأرض).. هذا هو الجزاء الذي تستحقه.. رحمنا الروسي، أما العربي لم يرحمنا.. قتلت ابني لكنني لم ولن أقتلك ، هل تعلم لماذا؟

ازدادت نظرة الرعب في عيني (أحمد)، وأطل منهما تساؤل ورجاء، فتابع (فراس) في حنق:

-لقد مات الروسيان، ومن غضب الله عليك أن أنجاك من الموت.. لقد بذلنا قصارى جهدنا حتى نُبقي على حياتك، كي تذوق العذاب في الدنيا قبل أن تلقى ربك، الأطباء قالوا بأنك لن تحيا كثيرًا، لذا سأصنع بك معروفًا لن تنساه.

ازداد التساؤل في عيني (أحمد)، واستطرد (فراس) في حنق أشد:

-سنرسلك إلى مصر لتحيا بعارك ومرضك ما بقي من عمرك في بلدك بين أهلك.. علمنا عنك أنك ملحد، لا تؤمن بإله على الرغم من أن اسمك (أحمد).. أخبر رفاقك رجالنا المندسين بينهم أنك من مصر، وهذا يبدو جليًا من لكنتك بالطبع، كما أخبرونا أنك من أقذر المرتزقة الذين معهم.

وضم قبضته صارخًا في غضب هادر:

- تقتلوننا وأطفالنا وتنتهكون أعراضنا من أجل المال؟ ألا تخافون ربكم؟

ولوح بيده وجعل يؤنب نفسه:

- أجننت يا (فراس)؟ أنسيت مع مَن تتحدث؟ إنك تتحدث إلى ملحد، لا يؤمن بربه حتى يعي ما تقول.

ودنا منه وهوى على وجهه بصفعة قوية، تلاها بأخرى هاتفًا والدموع تملأ مقلتيه:

- أتعلم ما حدث لزوجتي بعد ما فعلته بها وبابنها نُصب عينيها؟ لقد فقدت النطق وما عادت قادرة على الحركة بسببك، ابني الآخر أيضًا لم ينطق بكلمة منذ أن وقعت تلك الحادثة، ولا أدري متى سيتماثلان للشفاء، كل هذا يحدث لأن أمثالك يرغبون بالحصول على المال.. حكوماتكم تُضيق عليكم وتنهب ثرواتكم، وأمثالك يسفكون دماءنا وينهشون لحومنا من أجل حفنة من المال.. كل الجنسيات العربية بلا استثناء تحارب هنا.. في سوريا.. يا للحسرة على ما آل إليه حال المسلمين في العالم.. نبتغي العزة عند غير الله،

لكن العزة لله جميعًا.. أتعلم أيها الكلب لو أن نبينا الكريم لم يخبرنا بكل الخزي والمهانة التي نعيشها، الآن وبكل ما سيؤول إليه حالنا من ذل وضعف رغم كثرتنا، لكفرنا مثلك بهذا الدين، لكن ما زادنا ما يحدث لنا إلا إيمانًا بالله وبصدق رسوله الكريم.

كان (أحمد) يتابع ما يقول، دونما حراك، فقط الدموع تسيل على خديه في صمت، يخشى أن يرتفع صوت بكائه، صدره يعلو ويهبط في اضطراب، أنفاسه تتلاحق في صعوبة بالغة، أما الباقون فينقلون أبصارهم بينه وبين (فراس) في صمت، تتنازعهم الشفقة على الأخير، والسخط والغضب حيال الأول، كم تمنوا لو مزقوه إربًا بأسنانهم، لكن (فراس) أبى وأصر على ابقائه حيًا ومعالجته، كما أمرهم بقطع يده وقدمه من خلاف، بل وأصر على إرساله إلى مصر، خاصة بعد أن تم نشر الفيديو الخاص بما فعله به وأسرته على اليوتيوب، فتداول الفيديو وصوره بل وكل شيء عنه عدد هائل من النشطاء على شبكات التواصل الاجتماعي، فأصبحت نسبة مشاهدته بالملايين، وصارت سيرته القذرة على كل لسان في العالم، حتى غير العرب يلعنون سيرته، لذا أصر (فراس) أن يعيده إلى مصر ليحيا فيها بعاره، سالت الدموع على خدي هذا الأخير، وعاد ليعقد ساعديه خلف ظهره قائلًا:

- حرمتني واحدًا من أبنائي يا خنزير، وحرمتك أنا رمز رجولتك، فأمثالك لا ينبغي لهم أن يكون لديهم أي سمة من سمات الرجولة، لذا فقد سلبناك إياه، بحيث لو كُتب لك حياة، تعيشها ذليلًا.

ولم يشعر بنفسه إلا وهو ينقض على (أحمد) ويهوي بقبضته فوق صدره، فقفزت الدماء من فمه على الفور، و(فراس) يصرخ:

- يا ابن الكلب.

ثم وفي سرعة أمسك أذنه بأسنانه، لم يتركها إلا وقد انتزع جزءًا منها، والآخر يصرخ في ضراعة، أسرع الرجال من حوله إليه أمسكوا به، يترجونه أن يتركه، (أحمد) يمسك بأذنه بيده اليسرى المتبقية، يحاول منع الدماء التي سالت منها ، وأحدهم يقول:

- سيموت بين يديك يا (فراس)، اتركه.. لا تضيع كل ما فعلته، دعه يعيش بعاره ومرضه وحسرته، دعه يندم قبل موته على ما فعل، فندمه على ما آل إليه حاله هو أشد عقاب يناله.. سيحيا ذليلًا بين أقرانه، هذا إن كتبت له حياة.

لم يقاومهم (فراس) كثيرًا، إذ سرعان ما هدأت ثورته، لكن اجتاحته حالة هستيرية من البكاء، جعل الرجال يربتون على ظهره، وقد امتلأت أعينهم بالدموع مشفقين على مصيبته التي ابتُلي بها، ذهبوا به خارج الغرفة، فأشار لهم أن يتركوه وحده، وأمرهم بأن يعدوا الإجراءات اللازمة لإعادة (أحمد) إلى مصر..

حين عاد (أحمد) إلى مصر استقبله أهله استقبالًا يليق به..

فقد ملأت صوره وسيرته المشينة كل شبكات التواصل الاجتماعي، فيس بوك وتويتر وغيرهما، حتى وقبل سفره، وقبل كل تلك الضجة الإعلامية، وأهله يسخطون عليه ويكرهون أفعاله، خاصة بعد علمهم باعتناقه المذهب الشيعي، ثم إلحاده من بعد ذلك، وسوء معاملته لزوجته، التي باعت كل الدنيا من أجله..

لو أتاهم على غير حاله هذا لطردوه أو ضربوه وربما قتلوه، لكنه أتاهم وهو شبه ميت، لذا استقبلوه وجعلوه في غرفة، أحضروا طبيبًا للكشف عليه، كم أثلج صدورهم

تصريحه بأنه يحتضر ولن يطول بقاءه كثيرًا، وليس هناك داع لنقله إلى أي مشفى، فأمره لن يطول، حمدوا الله أنه قريبًا إلى زوال، ورغم ما فعله به (فراس)، إلا أن أكثر ما كان يؤلمه هو سماع القرآن، ما أن يقوموا بتشغيله في المكان حتى يفيق من غيبوبته، ويصرخ بهم:

- اطفئوه لا أريد أن أسمع هذا الكلام.. إنني أبغض سماعه، أخرسوه أرجوكم.

صُدموا حين قال هذا الكلام، لكن.أنـــي تكون نهاية شخص مثله، اسود قلبه وكفر بربه وقتل الأبرياء، والاعتداء جنسيًا على الرجال والنساء..

ختامٌ يليق بمن هم على شاكلته..

تلك هي سكرة الموت التي كان منها يحيد، أفاق منها هنيهة، فقال في صعوبة:

- (علي) أرجوك.

دنا منه شقيقه (علي)، كي يتمكن من سماع صوته الخافت المتهالك، فاستطرد بوهن شديد:

- (ماليكا) و(مؤمن) ابني، أريد أن أراهما.

هـز (علـي) رأسـه علامـة التفهـم، وذهـب بعيـدًا عنـه لإجراء مكالمته لها، أمسكت زوجته بيده وهو يجري اتصاله، مغمغمة في استنكار:

- كيف ستطلب منها هذا بعد كل ما فعله بها؟ لا تحرج نفسك معها، فلن تستجيب لك يا (علي)، فما فعله معها ليس بالقليل، ولا يتحمله أحد.

أشار لها أن تلزم الصمت، وجعل يجري مكالمته متجاهلًا إياها، لكن (ماليكا) لم تستجب له، فقالت له زوجته في عصبية شامتة:

- ألم أقل لك لا تفعل؟ ها هي لم تقدرك.

نظر لها شذرًا دونما تعليق، أمه تلك السيدة التي امتلأت جبهتها بغضون متراصة، ووجه رسم الزمن خطوطه في ثناياه، كانت تجلس في صالة البيت تضع يدها المعروقة على خدها، تتابع ما يحدث في صمت، دون أن تنطق بشطر كلمة، يطل من عينيها الغائرتين حزن وكآبة الدنيا كلها، رفعت رأسها عن يدها، وقالت لابنها:

- (ماليكا) ستستجيب لك يا (علي)، فهي تحبه ولن تتأخر عنه، مهما كان ما أصابها منه، فقد كان كل

أهلها بعدما تخلت عنهم، وأعلنت إسلامها من أجله، رُغم تعرضها للأذى والقتل، حين تعلم ما أصابه لن تتردد لحظة في الحضور، أعد المحاولة ولن تخذلك، أنا أثق في ذلك.

لوحت زوجة ابنها بيدها في تأفف، ثم غادرت المكان متذمرة، تجمجم في انفعال زائد عن حده، لكن لها أسبابها السابقة، فطوال فترة تواجد (ماليكا) وهي تغار منها، فقد كان لها معاملة خاصة من أهل زوجها، وحتى من الجيران أنفسهم، لذا لم تهدأ حدة غيرتها منها حتى تلك اللحظة، على الرغم من معاناتها مع (أحمد)، والذي أذاقها العذاب والألم بكل أشكاله وألوانه، لم تشفق عليها ولو لحظة واحدة.. غيرة بلهاء سوداء..

على فراشه رقد (أحمد) يرتجف جفناه، ترتعش يده الباقية، فقد كان يرى أشياء غريبة..

كان يتساءل عما يرى تتنازعه الحيرة..

أهو عالم آخر؟ أهو وهم؟ أهي النهاية؟ أتلك هي سكرة الموت؟

لكن في مجمل الأمر ما يحدث بشع، وما يراه أبشع، هناك مَن يجلس بمحاذاة رأسه، يخبره بأن اثبت على ما

أنت عليه، فلا إله ولا دين، وإن هي إلا تلك الحياة الدنيا فقط، ما أنت بمبعوث مرة أخرى..

اثبت فأنت على الحق المبين.

منذ قليل شقيقه كان يلقنه الشهادة، لكن كيف يحرك لسانه لينطق بها، وقد صار لسانه ثقيلًا كالجبل؟

كيف ينطق الشهادة، وقد صار قلبه أشد قسوة من الحجارة؟

أنت الآن يا (أحمد) بصدد لقاء بينك وبين حصائد عملك..

تلك هي اللحظات الحاسمات لك ولشيطانك، الذي هو أشد بأسًا عليك حال دنو أجلك..

هو يحصد مجهودًا شاقًا بذله كي يجعلك تكفر بالله، وأنت تحصد نتيجة رضوخك لوساوسه..

تلك اللحظة أنت تجابه عزيمة شيطانك المتأججة، التي لم تهدأ جذوتها منذ أن خلق الله (آدم) عليه السلام..



(2)

أحببت مسلمًا

((زوجك يحتضر يا (ماليكا))

قالتها لها شقيقتها (ليزا) في فرحة غامرة، تخيلت للحظة أن تخر أختها (ماليكا) المسلمة ساجدة لله جل وعلا شكرًا من فرط السعادة، إلا أن الذهول قد اجتاحها، حين نزعت ثديها من فم وليدها (مؤمن) ابن الشهور الخمسة، والذي تضعه على ساقيها لإرضاعه، نظرت إليها بعينين تقطران حزنًا ودمعًا يخفيهما، لم تنطق بشطر كلمة، كأن الصدمة قد أخرستها، سالت العَبَرات على خديها في سرعة، فسقطت في عيني الطفل الصغير ألهبتهما، فجعل يصرخ بشدة، لم تلتفت إليه كأنها لا تسمعه، هرولت إليها (ليزا)، التقطت الرضيع منها ضمته إلى صدرها في حنان محاولة تهدئته، شاخصة إلى شقيقتها في ذهول، هاتفة:

- والمسيح الحي ظننتك سترقصين من فرط السعادة لو مات هذا الحقير، الذي تركت دينك وأهلك من أجله.

وبدون مقدمات أجهشت (ماليكا) ببكاء حار مرير، قائلة في قرارة نفسها تتنازعها الحسرة:

- آه حين يغدو من عشقت من كل قلبي حقيرًا.. حين يصبح مَن تركت أهلي وديني من أجل أن أصبح ملكًا له سبب عذابي في هذه الدنيا.. آه على من وهبته كل ما أملك لا أرجو في هذه الدنيا إلا رضاه.. حين أرجو رحيله ولا أطيق له فراقًا.. ليتني ما تزوجتك يا (أحمد).. ليتني ظللت أحيا على ذكراك، فقد قتل زواجنا كل ما فينا من مشاعر جميلة، ولكن يبدو أنه هكذا يفعل الزواج كله، فصخب الحياة تتحطم على صخوره كل الأشياء الجميلة، لا نهوى فيه إلا ذكرى رائعة نحيا على الحنين إليها ونشتاقها، فقصة الحب التي لم تكتمل تظل خالدة في قلوبنا ماحيينا.

جلست (ليزا) إلى جوارها على الفراش، وضعت الرضيع عليه، ضمت رأس أختها إليها في قوة، وطفقت تربت على منكبها، قائلة في جزع:

- اهدئي يا (ماليكا)، إنه كلب حقير، لا يستحق هذه الدموع.

ما زادها هذا إلا نحيبًا وحزنًا، وجعلها تقول بصوت أبح مختنق:

- لكنه زوجي يا (ليزا).

هتفت بها في انفعال:

- أي زوج هذا الذي تبكين من أجله هكذا يا (ماليكا)؟ زوجك الذي تخليتي عنَّا من أجله، واعتنقتِ الإسلام كي تكسبين رضاه.. وفي النهاية كفر هو به، وكفر بأي دين، بل وكفر بوجود الله نفسه من الأساس.. ذلك المُسَبِح المُحوقل كما كنت تتحدثين عنه نسب كل الخلق للصدفة، التي لإن كان للصدفة كل تلك القدرة على خلق الأشياء بهذا الإبداع، لكان بالأحرى أن تكون الصدفة هي ربنا الأعلى.. زوجك الذي تركك وهاجر مع مجموعة من المرتزقة لقتل الأبرياء في كل مكان.. أهذا الذي تبكينه؟ أتبكين من أجل زوج سادي كان يتلذذ بدموعك وانكسارك وتعذيبك؟

ثم لوحت بيدها مستدركة في حنق أشد:

- أليس هذا هو كلامك عنه، أم أن هذا محض افتراء عليه؟

دفعتها (ماليكا) بعيدًا عنها، ثم جعلت تلطم خديها في قوة، لطمات سريعات متتاليات، تصاحبها هستيريا حادة من البكاء، جعلت (مؤمن) الرضيع يصرخ في فزع، لكن لم تعره إحداهما انتباهًا، والأولى تصرخ من بين دموعها:

- دعيني في حالي.. يكفيني ما أنا فيه..

وأمسكت بمنكبيها تهزهما في قوة، صارخة بها:

- لا أحد يفهمني.. لا أحد يشعر بالنار التي تحرقني.

دفعت (ليزا) يديها عنها في قسوة، نهضت من جوارها بحركة حادة، هاتفة بها في حنق:

- بل يكفي ما فعلتيه أنت بنا ولا تزالين تفعلينه.. كدتما تتسببان أنت وهذا الحقير في حرق البلد بأكملها من أجل قصة حب فاشلة.. أنسيت ما حدث؟ أ تودين أن أعيده على مسامعك مرة أخرى؟ لربما تكون ذاكرتك غير قادرة على استعادة ما قد سلف.

وقفت بمقابلتها وانحنت نحوها متابعة في تحدٍ:

- أتعلمين أن زوجك المصون الذي تبكين لأجله من أين أتى؟ أتعلمين أين كان هذا القذر ورجع إلى مصر بتلك الحالة يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

رمقتها (ماليكا) في تساؤل، والدموع تملأ مقلتيها، فأردفت (ليزا)، و(مؤمن)، الرضيع لا يزال يصرخ وهما تتجاهلانه:

- لقد كان في سوريا.. كان يشارك قوات النظام في قتل آلاف الأبرياء.. صحيح أنهم على غير ديننا لكنهم أبرياء لا ذنب لهم فيما يصيبهم.. إنه يشارك في قتل النساء والأطفال بلا رحمة وأنت هنا تبكين من أجله؟ إنه حقير يا (ماليكا).. حقير.

وعادت (ماليكا) تلطم خديها مولولة، ثم هتفت متسائلة:

- من أين أتيتِ بهذا الكلام يا (ليزا)؟

صمتت (ليزا) برهة ثم أخرجت هاتفها المحمول، قامت بتشغيل يوتيوب، ناولتها الهاتف، مغمغمة:

- ها هو ذاك.

مسحت (ماليكا) دموعها، التقطت الهاتف من يدها، وجعلت تتابع في خوف وترقب ترجو الله في سرها ألا يجعلها ترى ما يصدمها، فقد أهلكتها كثرة الصدمات، وما عادت قادرة على تحمل المزيد، لكن وبالفعل ما كانت تراه حطم قلبها، وجعلها تضع يدها على فمها، مطلقة شهقة عالية، وعيناها تلتهمان الهاتف التهامًا غير مصدقة لما تراه، فما كانت تشاهده في تلك اللحظة، زلزل كيانها كله، ارتجفت أوصالها وجفت الدماء في عروقها..

إنه زوجها الذي تراه أمام عينيها في مشهد مروع على اليوتيوب..

زوجها يرتدي الزي العسكري للنظام السوري، وهو يفجر رأس طفل صغير، وشيخ عارٍ يرقد على الأرض مصفدة يديه خلف ظهره، يدور حول نفسه صارخًا بكل ما يملك من قوة، لم تستطع استكمال المتابعة، فألقت الهاتف إلى أختها، كأنه قنبلة شديدة التفجير، وازدادت صرخات الصغير، كأنما انتقلت إليه أوجاع أمه، فالتقطته ضمته إلى صدرها بقوة، تربت على ظهره، وصوت نحيبها يمزق نياط قلب أختها على حالها، عادت تجلس إلى جوارها تربت

على ظهرها تواسيها، لكن.أنـــي لشيء أن ينزع كل تلك الأحزان من قلب (ماليكا) الممزق أشلاء يصعب رتقه، وهي ترى زوجها يفعل مثل تلك الجريمة البشعة..

ما جال بخاطرها ولو للحظة أن يكون بمثل تلك القسوة وهذا الإجرام، على الرغم من معرفتها بمدى قذارته وقسوة قلبه، لكنها لم تتخيل أن يصل بجرمه إلى هذا الحد..

هي ترى مشاهد قتل النظام السوري للأطفال والنساء والشيوخ على شاشات التلفاز، وتبكي من أجلهم، تدعو الله أن يرحم موتاهم ويستر أحياءهم، ثم ها هو زوجها تراه ممن سفكوا تلك الدماء البريئة..

وشردت ببصرها تنظر إلى لا شيء، وحزن عارم يجتاحها كأنه سيل العرم..

رن هاتفها الملقى إلى جوارها على الفراش أكثر من مرة، لم تلتفت إليه إلا بعد أن وجدت من طالبها إلحاحًا، تطلعت إلى اسم المتصل.. إنه (علي) شقيق زوجها، ألقت الهاتف إلى جوارها ولم تجب، لكن حين وجدت منه إصرارًا، أجابت بصوت مختنق:

- خيرٌ يا (علي).

حياها وسألها عن (مؤمن)، ثم قال في انكسار:

- أعلم جيدًا أنه لا يحق لي الاتصال، بعد ما فعله (أحمد) بك، لكن أقسم بالله أننا نشعر بآلامك ونتألم مثلك وأكثر بما فعله، لكن الوقت ضيق وهو الآن يحتضر ويحتاجك إلى جواره.. إنه يريد أن يراك و(مؤمن)..هو الآن في غيبوبة، آخر ما طلبه مني أن أحضركما إليه، فأرجوكِ لا تخذليني.

صرخت من بين عَبَرَات كالحمم:

- أنت تطلب المستحيل يا (علي).. شقيقك هذا لا يجوز حتى الترحم عليه حين موته.. أنت شخص طيب يا (علي) ولا تعلم عنه شيئًا.. لا تعلم أين كان ليعود إلينا بين الحياة والموت.. لقد كان.....

قاطعها في حزم:

- بل أعلم يا (ماليكا).. أعلم كل شيء..أعلم ما فعله، لكنه أخي وهو الآن بين يدي الله عز وجل، يكفيه ما سيناله من عقاب الآخرة.. صدقيني يا (ماليكا) كلنا نشعر بما تشعرين به، لكن ليكن حسابه على الله..

كانت ترتجف كعصفور صغير مبتل في مهب الريح مكسور جناحيه، جاوبها صمته ثم تنهيدة، وهو ينتظر ردها لكنها لم تستطع الرد، فقد كانت أختها تنكزها وتهمس لها في حنق بألا توافق، لكنها لم تنطق بحرف، فقال (علي):

- سوف آتِ إليك على الفور، فأرجو منك الاستعداد للرحيل معي، لا تعارضيني فهو في حالة خطرة فلا تخذليني يا (ماليكا)، فقد تكون تلك هي المرة الأخيرة التي ترينه فيها.

لم تقو على الكلام فغصة تعوق كلامها، وشلت كل أركانها عن الحركة، لكن عقلها دب فيه النشاط وعاد بها إلى الوراء.. كثيرًا..

(أبانا الذي في السماء لقد أحببت مسلمًا، فهل يجوز لي أن أفعل هذا؟ هل يجوز لي أن أفكر به؟ أبانا الذي في السماء إن كانت تلك مشيئتك وترضاها فازرع حبي في قلبه مثلما أحبه، وإن لم تكن ترتضيه ويخالف مشيئتك، فساعدني وكن بجانبي كما كنت دائمًا كي أتخلص من حبي له، فما عدت قادرة على تحمل كل تلك الآلام والمعاناة..

ما عدت قادرة على نسيانه، ما عادت صورته تفارق خيالي، ولقد ناجيتك كثيرًا أن تُنسيني إياه، لكنك تتجاهلني، رغم أني ما عصيتك يومًا.. أبانا الذي في السماء قد صار حبه لي كل ما أرجوه من هذه الدنيا وبُعده عني كل آلامي، فأيما تراه خيرًا لي وفقني إليه.. آميييييين)

هكذا كانت (ماليكا) تحدث نفسها كثيرًا، وتناجي ربها في تلك الفترة، التي أصبحت تتنفس فيها حب (أحمد)، وحَمَّ شعاعه حتى كاد يحرقها حرقًا، زادت معاناتها، هجرها النوم، حتى وإن غفت يهاجمها في منامها، حبه كابوس يضج حياتها كلها، لكن ما أحلاه من كابوس، يُدميها يداوي كل ما فيها، هكذا حبه، مزيج من الألم والانتشاء، عبادة وكفر ، دائمة البكاء حين تكون وحدها، تحاول التظاهر بالقوة والتماسك أمام أهلها خاصة، فهي تعلم علم اليقين بأن مجرد مصارحتهم بحبها لـ (أحمد) ستصبح هناك كارثة واقعة لا محالة، لكن(ماليكا) ما عادت على مألوف حالها، كانت كطفلة بريئة كثيرة الضحك والصخب، خاصة بين أهلها، أما الآن أصبحت كثيرة الانطواء بشكل ملحوظ ومؤرق، فبعد أن ملأت الدنيا مرحًا، لم يعد لها من أنيس إلا وسادتها، تسكب عليها دموعها وحزنها، تلك الوسادة المسكينة

التي تتحمل آلام ودموع الكثيرين منَّا دون اعتراض، كلما تقربت منها أمها لمعرفة سبب كآبتها، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من شخصيتها، تارة باللين وأخرى بالشدة، كانت تتهرَّب منها وفي كل مرة تخرُج أمها في نهاية الحوار بلا شيء خاوية الوفاض، فكانت تدّفع أختها الصغيرة (ليزا) لمعرفة الأسباب، لكن (ماليكا) كانت تعلم يقينًا أن أمها هي مَن دفعتها لذلك، فما كان منها إلا أن تلوذ بمراوغتها، لم تصارح أحدًا بهذا الأمر، إلا إحدى صديقاتها المسلمات في الجامعة، وهي التي كانت تحكي لـ(ماليكا) كل أخباره، حتى (أحمد) نفسه لم تخبره بتلك الحقيقة بعد، ربما لو التقت عيناهما عجزت عن الالتفات بعيدًا عنهما، ربما لاحظ هذا لكن ليس هناك علاقة بينهما من أي نوع، لعل ما تكنه له من حب يجعلها غير قادرة على التعامل معه على طبيعتها، لذا يصعب عليها التقرب منه، فعلاقتهما التي ترجوها تثق بأنها شبه مستحيلة، فأنى لمسيحية أن ترتبط بمسلم؟ قد تؤدي العلاقة في النهاية إلى كارثة محققة، فكثيرًا ما تسببت علاقات من هذا النوع في إراقة الدماء، وحدوث فتنة طائفية في البلاد، لذا فالأمر في غاية الخطورة، ووجب الحرص كثيرًا، لئلا تحدث الفاجعة، التي تبتهل إلى الرب كثيرًا ألَّا تكون سببًا فيها..

(ماليكا) تلك الجميلة الرقيقة متناسقة القوام دقيقة الأنف كستنائية الشعر جميلة الشفتين كأنهما ثمرتي فراولة ناضجتين تنتظران مَن يقطفهما، بنية العينين، التي ينتظر الكثير من الشباب - بل والفتيات أيضًا - رؤيتها ، الشباب لغرائزهم، والفتيات ليتعلمن منها كيف تكون الأناقة، رائعة كانت (ماليكا) وما زالت رُغم تلك الهالتين السمراوتين اللتين تحيطان بعينيها من كثرة السهر والبكاء وقلة الطعام..

كان ذلك هو عامها الأول في كلية الحقوق، وكان هو في عامه الرابع، كان متميزًا بين رفاقه بالأناقة والتفوق وقوة الشخصية، وأشياء أخرى تجعله مختلفًا بالنسبة لها لا تعلم ما هي، ربما هذا من وجهة نظرها وحدها، لكن حتى ولو كانت تلك وجهة نظرها وحدها، فهذا يكفي بأن يكون شخص مختلف عن كل الناس بالنسبة لها، وتعلم أنه يعلم بحبها له، فهي لم تقاوم يومًا عينيه، كلما وقعت عيناه في عينيها، تتصلب في مكانها، وبالتأكيد هو يشعر بتلك النظرات، فهو ليس بأخرق، إنه ذكي قوي الملاحظة، كثيرًا ما كانت تقع عليها عيناه في كل ندوة تُقام في الجامعة أو خارجها، كانت تتثبتان في عينيها، تخترقانهما اختراقًا ، بل تخترق قلبها نفسه كأنهما سهمان من نار تحرقانه، أو

كمبهجات للقلب يطير بهما قلبها حتى يعانق نجوم السماء، إنه الحب يا سادة، وما أدراكم ما حب (ماليكا) المسيحية لـ(أحمد) المسلم..

إنه حب ليس كالحب.. إنه ماء ونار وباء ودواء سعادة وهم..

تلك التي تتجنب كل متجهم كئيب عبوس، فهي تبغض الشكوى من الهموم، صارت هي المعنى الحقيقي لكل بؤس وكآبة وتجهم، لم تكن تتمنى يومًا أن تصبح هكذا لكنه قد قضي الأمر، ووقعت في ذلك الفخ الذي نصب شِباكًا لا فكاك منها..

فخ الحب..

((يا (مريم) العذراء يا نبع النور ما الحل وقد ضاقت بي السبل كل السبل، هذا المسلم ما عدت قادرة على بعدي عنه رُغم أنه ليس بيني وبينه أي قرب، لكنه أقرب الناس لي، وهو لا يبالي بأمري.. يا (مريم) العذراء حالي ما عاد حالي، وإن لم تكوني بجانبي لسوف ينتهي بي المطاف قريبًا إلى الانتحار فقد انتهيت.. انتهيت بحق))

تلك كانت مناجاتها الأخيرة، في ذلك اليوم، الذي قررت فيه أن تتحدث إلى (أحمد) وتعترف له بحبها..

صديقتها على الفيس بوك (ريهام الشافعي)، والتي لا تعرفها حتى الآن، نصحتها بهذا، تلك هي المرة الأولى التي تثق بأحد لا تعرفه، بل ولا تعلم حتى إن كان ذكرًا هي أم أنثى، لكنها ولسبب لا تعلمه تثق بها وربما به، بل وتشعر أن بينهما علاقة متشابكة وشائجها، غريبة أطوارها تلك الفتاة لديها أسلوب رهيب في الإقناع، حتى أنها استطاعت اقناع (ماليكا) أن خير وسيلة لإنهاء هذا الصراع بداخلها أن تصارح (أحمد) بحبها، ربما كان في ذلك راحة لها.. هكذا أخبرتها واستبد بها هذا القول فخضعت له رضوخًا واستجابت..

(ريهام) ظهرت في حياتها مؤخرًا، تقريبًا بعدما تعلقت بـ (أحمد)، وكثيرًا ما كانت (ماليكا) تحدثها عنه باستفاضة.. كانت تستريح معها في الكلام، فكانت لا تخفي عنها شيئًا، فمعها كانت تشعر (ماليكا) بأنها مجرد طفلة صغيرة، كانت تلين لها، فتحب ما تقول وتقتنع به بكل كيانها.. ساحرة لها بالقول تلك الفتاة المجهولة..

((اليوم سأصارحه بكل شيء ، فما عدت قادرة على كتمان حبي له، وليحدث بعد ذلك ما يحدث، فإرادة الرب فوق كل شيء، ولن يخذلك الرب يا (ماليكا).. ثقي في الرب فإنه يحبك ورحيم بك))

بعـد أن اتمـت ارتـداء ملابسـها، وحـين انطـوت لتنتعـل حذاءهـا، ذو الكعـب العـالي، دخلـت أختهـا (ليـز) الغرفـة، ومـا أن رأتهـا حتـى أطلقـت من بين شـفتيها صفـيرًا منغومًا، أمسـكت بيدهـا وأدارتهـا دورة كاملـة، غمـزت لهـا بعينهـا، قائلـة في مـرح:

- مـا كل هـذا الجمـال وتلـك الأناقـة يـا (ماليـكا)؟ أراكِ هـذه المـرة أكثر جمالًا وأناقة عن أي يومٍ آخر.

حاولت أن تكون مرحة معها، وهي تجيب:

- طـوال عمـري يـا كلبـة، والجميـع يعلمـون أن أختـك مـن أكثر البنـات أناقـة وجمالًا في الجامعـة، أم تظنين أنك وحـدك الجميلـة في هذا الكون؟

عادت (ليزا) تغمز لها بعينها، قائلة:

- يبدو أنك ستقابلينه.

رمقتها في تساؤل مصطنع:

- مَن تقصدين يا (ليزا) ؟

ضحكت شقيقتها قائلة في دلال:

- هو يا (ماليكا).. حبيبك.

ابتسمت ابتسامة باهتة، وأشارت لها بيدها أنها مجنونة، ثم تهربت منها، حملت حقيبتها وما ترغبه، وشرعت بالمغادرة، فهتفت بها اختها في حنق:

- كما يحلُو لك يا (ماليكا).. تقربت منك كثيرًا، وطلبت منك أن تبوحي لي بسرك، ووعدتك بأنني سأكون حضنك الذي لن ترتاحي في غيره لكنك رفضتِ.. أعدك أنني لن أطلب منك هذا ثانية، ولو رأيتك تبكين ليل نهار، حتى ولئن جئتِني يومًا تحكين لي فيه عما يعتريكِ، فلسوف أضع إصبعاي في أذناي، لئلا أسمع منك حديثًا.. أعدك بهذا..

توقفت (ماليكا) عند باب الغرفة، التفتت إليها في بطء، وحين فعلت شعرت (ليزا) بوخزة في قلبها حيال ما رأت..

تلك العينين التي تخفيهما الدموع قالت الكثير..

الكثير جدًا..

- سأخبرك بكل شيء يا (ليزا) في وقته.. أعدك بهذا.

لم تعقب (ليزا) ولم تنتظر الرد (ماليكا)، فانصرفت على الفور، تاركة أختها من خلفها منقبض قلبها، تقلب كفيها في حيرة وقلق متسائلة:

- ماذا بك يا أختاه؟ ما كل تلك الهموم؟ أرجوك يا يسوع لا تتخلّ عنها.. آمين.

شعرت بغصة فصمتت ثم أردفت:

- أقسم لك أنه الحب يا (ماليكا).. الحب وحده يفعل ذلك.. اسأليني أنا عن هذا..

ثم أطلقت تنهيدة حارة، أعقبتها بآهة طويلة بعض الشيء، متابعة:

- خرب الله بيتك يا (چورچ) يا ابن (تريزا) مثلما أتعبت قلبي..

ثم تفلت في صدرها ثلاثًا، قائلة:

- بعدًا للشر عنك يا حبيبي..

إذ ذاك طفرت دمعة يتيمة من عينيها مسحتها، شخصت لأثرها بيدها ذاهلة، ثم قالت محدثة دمعتها:

- عليك اللعنة، منذ متى وأنت تمكثين ها هنا؟ فالدمع لا يعرف لي طريقًا.

وغادرت غرفة أختها مغلقة الباب من خلفها في هدوء..

استقبل (چورچ) زوج (ليزا) (علي) شقيق (أحمد) استقبالًا مستفزًا أنكره الرجل، فمنذ أن علم الأول بعلاقة الأخير بـ(ماليكا)، وهو يبغضه بُغضًا بلا حدود، بل ويبغض كل مَن يخصه..

له أسبابه بالطبع، لكن (علي) تحمل صفاقته من أجل (ماليكا)، كذلك استقبله (چورچ) في بيته وهو كاره، أيضًا من أجلها، وما أن رأت (علي) حتى بش وجهها العابس من شدة الهموم والبكاء، في حين رفضت أختها مقابلته نهائيًا، حاولت (ماليكا) أن تبدو متماسكة أمام (علي)، لكنها عجزت أن تفعل، فما كادت يدها تمس يده لمصافحته، حتى دمعت عيناها، خيل إليه بأنها ستهوي فاقدة الوعي، أشفق عليها، نظرت إلى (چورچ) نظرة ذات مغزى، فتركهما وحدهما وانصرف في تأفف، أبدًا ما كان

يرغب أن يتركهما وحدهما، ولا حتى كان يرغب أن تذهب معه، وما كاد يفعل حتى أشارت إلى (علي) بالجلوس، قائلة بصوت تخنقه الدموع بشدة:

- أرأيت ما فعله (أحمد) يا (علي)؟

هز رأسه في مرارة، قائلًا بصوت خفيض:

- والله يا أم (مؤمن) أنا أخجل منك، ولا أُنكر أنه من حقك كراهيته جزاء ما فعله بك، ولا ألومك في هذا، لكن لو ترين حاله ستشفقين عليه، فتلك هي اللحظات الأخيرة في عمره، هكذا قال الطبيب.. (أحمد) بتروا إحدى يديه، وإحدى قدميه، كذلك بتروا..

صمت عند هذا الحد فصكت هي خديها، وصاحت والدموع على خديها تلاحق بعضها بعضًا:

- يا إلهي! يا إلهي!.. مَن فعل به هذا ؟

حدق بها في دهشة، ولسان حاله يقول (رقيقة القلب أنت يا (ماليكا)، على الرغم من كل ما فعله بك، ولا تزال دموعك تسيل من أجله، أنا شقيقه لكنّي ما عُدت أرثى لحاله، رُغم كل ما أصابه)..

- ما قرارك يا (ماليكا)؟ هل ستأتين معي؟

قالها (علي) لكنه لم يتلقَ منها جوابًا، فقد كانت في حالٍ يرثى له، تبادلا بعدها حديثًا غير طويل، حسمت بعده (ماليكا) أمرها وانصرفت إلى الداخل لإحضار (مؤمن) وبعضًا من متعلقاتها، استقبلتها أختها حانقة:

- ألا تزالين تصرين على الذهاب معه؟

صمتت (ماليكا) لحظة، قالت بعدها في حزم:

- نعم يا أختي سأفعل.. ألا تنوين أنت مقابلة (علي)؟

لوحت بيدها، قائلة في غضب:

- كلا يا (ماليكا) لن أقابله، بل وأبغض مقابلته، وأنت إن ذهبت معه ، فلا تعو....

قاطعها (چورچ) هذه المرة في حزم:

- (ليزا).. إياك أن تنطيقها.. إنه بيت أخيها تأتي متى تشاء.

عادت تلوح بيدها في سخط، على حين حمل (چورچ) عن (ماليكا) الحقيبة، حملت هي (مؤمن) وانصرفت

لمرافقـة (علـي)، أوصلهمـا زوج أختهـا إلى البـاب واكتفـى بهـذا، ومـا كاد يغلـق البـاب مـن خلفهمـا، حتـى اسـتقبلته زوجتـه بثـورة عارمـة:

- أنت لا تزال تحبها.

رفع سبابته في وجهها محذرًا:

- (ليزا) لا تتجاوزي حدودك معي.

صرخت:

- أتظننـي سأخاف من تهديدك هـذا؟ أنـا أعلـم أنـه مـا زال في قلبـك مكان لهـا، وأعلم أنـك تحبها أكثر منـي.

كم ود لـو انفجـر فيها سبابًا وتأنيبًا، لكنه تمالك نفسـه، زفـر زفـرة حـاول إخفاءهـا بقـدر الإمـكان، ثـم دنـا منهـا.. أمسـك يديهـا.. نظـر في عينيها مباشـرة:

- يـا بنـت المجنونـة أنت لا تعلمـين مكانتـك عنـدي.. أنـت كل حياتـي لكنـك غبيـة.. أنـت زوجتـي وحبيبتـي وأم أولادي في المسـتقبل بمشـيئة الـرب.

وجعـل يديهـا خلف ظهرهـا، محيطًـا خصرهـا بذراعيه، بـادئ ذي بـدء حاولـت التخلص في عنـف، لكـن وبعـد عـدة

عبارات رقيقة، وقبلات كان يسرقها منها في صعوبة لانت في يديه، وارتمت بحضنه وجعل هو يداعب شعرها ممطرًا خديها وجبهتها بالقبلات، وفي قرارة نفسه صراع داخلي، فكان يتخيل نفسه في تلك اللحظات بأنه يخنقها، ويهوى على رأسها بالمزهرية ليتخلص من سخفها..

وفي السيارة جلست (ماليكا) إلى جوار (علي) وكلاهما يلزم الصمت، هي تفكر تلك اللحظة التي سترى فيها زوجها بعد طول غيابه على حاله هذا..

تُرى هل ستلقي نفسها بأحضانه أم أنها ستبصق في وجهه؟

حقيقة هي حتى لا تعلم لماذا استجابت لـ (علي) وذهبت معه، كانت تؤنب نفسها على قرارها هذا، وتصفه بالقرار الأحمق..

لكن ليس هناك داعٍ لجلد نفسي، دعي القدر يفعل ما يشاء يا (ماليكا)..



(3)

لقاء

ما أن شعروا بغياب (أحمد) عن الوعي، حتى قامت أمه من جلستها وسارت على أطراف أصابعها، توجهت نحو جهاز الكمبيوتر، مدت يدها نحوه لتشغيل القرآن، الذي كان يرفض الاستماع إليه إبان يقظته، كان يفيق من السكرة ويصرخ أن افصلوه لا أريد سماعه، وما كادت تفعل تلك المرة أيضًا حتى عاد لينهض من غيبوبته ويصرخ بأمه:

- أرجوكِ يا أمي لا أرغب سماعه.. إن هذا الكلام يحرقني.

يممت محياها شطره في بطء وحزن..

يا إلهي! إلى هذا الحد يا (أحمد) كتب الله عليك تلك النهاية؟

إلى هذا الحد غضب الله عليك ولعنك، وكتب عليك سوء الخاتمة؟

ليت بطني ما حملت بك ولا أنجبتك..

الدموع تتساقط على صفحة وجهها في عجالة، تربت على منكبها برفق زوجة ابنها (علي)، محاولة تهدئة لوعتها على ولدها، غادرتا الغرفة، وأمه تنظر إليه مهمومة لا تلوَ على شيء سوى البكاء، عادت إلى الردهة لزمت الأريكة جاعلة رأسها على يدها، تختلج قسمات وجهها بين الحين والآخر، طواها هم بلا حدود، على حين توجهت زوجة ابنها (كريمة) تفتح الباب، عندما تناهى إلى مسامعها صوت الجرس، فتحت ليقابلها وجه (علي) يحمل حقيبة (ماليكا)، ومن خلفه تلك الأخيرة تحمل ابنها (مؤمن) على يديها، أرسلت بصرها فيه شذرًا، وأحدته فيها، شرعت بالانصراف دون أن تصافح (ماليكا)، استوقفها زوجها هاتفًا بها في صرامة:

- (كريمة).

ارتبكت حين شعرت بغضبه، التفتت في بطء، فتابع في حدة أشد:

- صافحي اختك.

زمت شفتيها في ضيق شديد، وتقارب حاجباها حتى كادا يتلامسان، وتغضنت الجبهة، عادت أدراجها، مدت يدها متذمرة، فمدت لها (ماليكا) كفها غير راغبة، صافحتها بأطراف أصابعها، فاتسعت عينا (كريمة) عن آخرهما، استشاطت غضبًا، لكن حين ارتأت نظرة الغضب التي تطل من عيني زوجها، أعرض لسانها عن الكلام، لكن قلبها يصرخ بكل الشتائم والموبقات الواردة في كل قواميس السفالة، ضربت الأرض بقدميها وانصرفت دون أن تنفرج شفتاها، أما (ماليكا) فقد ولجت خلف (علي)، حين ارتأتها حماتها فرحت وابتسمت من بين دموعها، فدائمًا ما كانت (ماليكا) تساعدها في أعمال المنزل دونما كلال، عكس (كريمة) التي لم تكن تبالي بها أبدًا، فدائمًا ما كانت تعزف عن مساعدتها، بحجة أو بدون، وظلت في مجلسها لكنها فتحت يديها عن آخرهما، تناولت حفيدها من يدها وجعلت تمطره بالقبلات الحارة وتداعبه، حتى الطفل نفسه كان يحرك يديه وقدميه، كأنما يعبر بذلك عن سعادته

بلقاء جدته بعد كل هذا الغياب، ناولت (مؤمن) لابنها، فارتمت (ماليكا) بحضنها تنتحبان كلتاهما، ترتعدان من فرط البكاء، و (علي) يتابعهما عيناه دامعتان، وأمه تقول من بين دموعها:

- لماذا يا (ماليكا)؟ لِمَ تركتينا يا أم (مؤمن)؟

ترتجف (ماليكا) أكثر، قائلة بصوتٍ متهدج:

- غصبًا عني يا أماه.. سامحيني.. والله غصبًا عني يا حبيبتي.

ثم جعلت تقبل يديها مردفة:

- أوحشتِني يا أمي.. والله أوحشتِني.

ربتت الأم على رأسها في حنوٍ مغمغمة:

- طوال عمري وأنا أسامحك من كل قلبي، لا أحمل بداخله سوى الحب والرضا عنك بحق عشرتك الطيبة.. أنت ابنتي التي لم ألدها.

ومن بين دموعها سألت (ماليكا):

- أين (أحمد) يا أمي؟

أومـأت إلى الغرفـة التـي يرقـد بهـا، فتوجهـت نحوهـا (ماليكا) في بطء شـديد، تجر قدميها جرًا، وعقلها يشـتعل مـن فـرط التفكير بلحظـة لقائهـا بـه..

لقد سامها سوء العذاب..

كان حقيرًا بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانٍ..

توقفـت برهـة التفتـت إلى (علـي)، أشـارت إليـه بـأن يعطيهـا (مؤمـن)، ناولهـا إيـاه برفـق، دخلـت بـه علـى أبيـه، تلـك هـي المـرة الأولى التـي سـيراه فيهـا (أحمـد)، فقـد هجرهـا وهـي في نهاية شهرهـا الثامن، أي قبل ولادته بشـهر واحـد، العجيـب أنـه حتـى لم يسـأل عنـه طوال فـترة غيابـه..

أي قسوة تلك!!!

أخُلق قلبـه من حجر؟

دلفـت (ماليـكا) الغرفـة، ومـا كادت عيناهـا تقعـان عليـه، حتـى اختلـج قلبهـا بـين ضلوعهـا، من الواضـح أن الدموع قد أقسـمت أن تتخـذ مـن خديهـا معبرًا لهـا، فقـد كانت تتلاحق عليهمـا على عجل، وبصوت أبح همسـت:

- (أحمد).

ورُغم أنه لم يسمع لها نداءً، إلا أنه التفت إليها..

التفت في بطء رهيب..

وبكى..

هو الآخر بكى، مد يده في وهن نحوها ، مدت يدها إليه بالطفل، وما كادت تفعل حتى أطلق الطفل صرخة أحزنته وأفزعتها وكأن الرضيع قد رأي شيطانًا مريدًا، فضمته إلى صدرها في قوة، جعلت تقبله حتى هدأ، وهي تهمس لطفلها:

- إنه بابا يا حبيبي لا تخف.. لا تخف يا عمري.. إنه بابا الذي يحبك.

وحين عادت لتقربه منه مرة أخرى، عاد الطفل ليصرخ صرخة أشد، وكأنه يعلن عن رفضه للقاء أبيه..

أصابها الذهول مما يحدث، أما هو فقد أطل من عينيه حزن عميق..

لم تُعَقِب أعطت الطفل لعمه، وعادت إلى زوجها، استأذنتهما فأغلقت الباب، اقتربت منه، مالت نحوه لا تعلم ماذا تفعل؟

ما تلك الرائحة المنكرة؟ أهي صادرة منه ؟

رُغم كل ما حدث إلا أنها ما فتئت تحبه..

رُغم يقينها بأنه قذر ولا يستحق..

لكنها تحبه..

قبلت جبهته، شخص بها صامتًا يريد أن ينطق بشيء ما، لكنه يعجز عن الكلام، لسان حاله ينطق بكل شيء..

سامحيني ما قدرتك حق قدرك..

سامحيني وتذكريني بالخير.. حبيبتي أنت يا (ماليكا) ليت عمري يطول وأنا أقضيه خادمًا لك أكرس كل لحظة في حياتي من أجلك فقط..

من أجل إسعادك وإسعاد ابني..

نار الندم تحرقني يا (ماليكا)..

تعتقدون أنني لا أشعر بما يدور من حولي، لكنني أعلم أكثر منكم..

أكثر من كل أهل الأرض..

إن كنتم ترغبون بمعرفة المعنى الحقيقي للدنيا، سلوا هذا الذي يتربص به الموت، فإن ذلك المحتضر هو أعلم الناس بقيمتها..

إنها لا شيء..

حقيرة..

لا تستحق حتى التفكير فيها..

حين تأتيكم المنية على حين غفلة منكم ستعلمون ما أقول..

لكنكم ستعلمون مثلي حين فوات الأوان، وصدقوني ستندمون أشد الندم على كل لحظة عصيتم فيها ربكم..

فات الأوان يا (ماليكا) ليت الندم يصلح شيئًا..

ليته يا حبيبتي..

مالي أراكِ ملاكًا الآن ؟ لِمَ لَم أركِ هكذا من قبل؟

كنت أعمى..

الآن أرى أول لحظة قررت أن أصارحك بحبي..

كانت أجمل لحظة في عمري كله يا (ماليكا)..

يالحماقتي ! أفي اللقاء الأخير أحن للقائي الأول؟

نعم هو اللقاء الأخير فأنا أشعر بنفسي..

أنا ميت..

لماذا لم أفعل هذا من قبل؟

ليتني ما تركتك يا حبيبتي ربما تغير الحال.. ربما..

قد فات أوان الندم يا (ماليكا)..

واسترجع تلك اللحظة التي صارحها فيها بحبه..

استعادها بكل تفاصيلها..

ففي ذلك اليوم التي قررت فيه (ماليكا) بمصارحته بحبها، هو أيضًا اتخذ هذا القرار، صحيح أنه يلاحظ نظراتها إليه، اهتمامها به.. متابعتها له في شغف.. السؤال عنه دائمًا، لكنها لم تتحدث معه هو بالذات..

كان يرى أنه كثيرًا عليه أن تهتم به مثل تلك الفراشة الرقيقة، التي يتمنى التقرب إليها أي فرد في الجامعة بأكملها..

تلك الملاك الرقيقة التي شغلت كل تفكيره..

هو كان أكثر كتمانًا، فلم يصارح بحبه لها أي شخص.. حتى ولو كان أقرب الناس إليه، فهو على يقين بأنها مجازفة لن تحمد عواقبها فيما بعد..

كان في قمة أناقته في ذلك اليوم، حتى أن شقيقه الكبير (علي) قد أطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا حين رآه، تمامًا كما فعلت (ليزا) عند رؤيتها لأختها، ثم قال له:

- ما شاء الله يا (أحمد)، كأني أرى أمامي النجم (ليوناردو دي كابريو)..

دار حوله دورة كاملة، مردفًا:

- من الواضح أنك ستقابل (روز) اليوم في الـ (تيتانيك) يا عربيد..

وأشار إليه بسبابته، محذرًا في مرح:

- لكن إياك أن ترسمها عارية يا (أحمد)، فالتي ستتعرى لك ستفعلها لغيرك، فلا تستدرجها واقبلها على حالها.. بملابسها يا منحرف.

جعل أحمد يصفف شعره، ثم لوح بيده قائلًا في مرح:

- ادع لأخيك أن يرسمها اليوم بأي شكل، بملابسها أو بدونها، ولو حتى رسمتها بالنقاب، المهم أن تلين بيد أخيك، وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

انعقد حاجبا (علي)، وقال مداعبًا:

- كنت أعلم أن في الأمر (روز) يا أحمق.

ضربه (أحمد) على منكبه، مغمغمًا:

- بل (ماليكا) يا (علي).. (ماليكا).

سأله في اهتمام:

- حلوة يا (أحمد)؟

قال دون أن يلتفت إليه:

- (ماليكا) هي المعني الحقيقي للجمال يا (علي).. هي المعنى الحقيقي للأنثى الكاملة.. بل هي الأنوثة كاملة متمثلة في فتاة.

ولم ينتظر منه جوابًا..

غادر الغرفة على الفور، تاركًا شقيقه من خلفه، يقلب كفيه دهشة حين نطق عبارته الأخيرة، ولم يجد مَن ينصت إليه، حين هم (علي) بالكلام فأطبق الصمت، وفي إحدى القاعات بالجامعة كانت هناك مناقشة لكاتب معروف عن رواية له أثارت جدلًا في الآونة الأخيرة، لما فيها من إباحية شديدة، وقد كان (أحمد) هو الذي يدير الندوة.. كانت الندوة تسير على ما يرام إلى أن ظهرت (ماليكا) بين

الحضور، إذ ذاك غاب كل الحضور إلاهي، وحدها كانت أمامه ولا يرى سواها، كانت كالقمر إذا انتصف الشهر في سماء صافية، في هذه المرة كانت تنظر إليه بإصرار بَيِّن أبصره..

أعلم أنك ستخبرينني اليوم بحبك لي يا (ماليكا)، فقد أخبرتيني بهذا أنا قد أقنعتك به، ولقد استجبتِ لأمري، فأنا هي يا (ماليكا) ولكن لا تعلمين..

أنا كنت صديقتك على الفيس بوك (ريهام الشافعي)..

أنا تلك الصديقة التي لا تعرفينها وتشكين إليها حبك ووجعك وقلة حيلتك..

وفي شرود تام وآلية، نظر للكاتب ونطق لسانه بما وقر في قلبه، فسأل الكاتب:

- أتحبينني؟

عينا الكاتب اتسعتا عن آخرهما ذهولاً، وانفجر الحضور ضاحكين، (ماليكا) وحدها أحست بالكلمة تمس شغاف قلبها، شعرت بأنه يقصدها بسؤاله هذا، وعلى الفور أجابت بصوت هامس:

-والمسيح ما أحببت غيرك يا (أحمد).

وسأل الكاتب في دهشة:

-مَن تلك التي تحبك يا أستاذ (أحمد)؟

أفاق من شروده فجأة، شخص بالكاتب ثم جال ببصره في الحضور، تنحنح بحرج ثم قال في ارتباك، واضح وقد علت وجهه حمرة خجل:

-ماذا؟ معذرة يا أستاذي، فقد شردت في بحر روايتك، و.....

لم يجد به ما يستتم به عبارته فلزم الصمت، وابتسم الكاتب في سخرية، فقد وجدها فرصة سانحة كي يحرجه، كما تعمد (أحمد) إحراجه أمام الحضور أكثر من مرة بأنه، تعمد الكتابة بإباحية صريحة بوصف مشاهد جنسية، لم يتم توظيفها في الرواية، رغبة منه للشهرة ليس إلا، كما اتهمه بأن لغته ركيكة في عمله هذا، فقال الكاتب بسخرية لاذعة:

-أستاذ (أحمد) كان يجب أن تحل مشاكلك العاطفية قبل حضور الندوة، كي لا يختلط عليك الأمر، وتخاطبني على أني محبوبتك، أو حتى على

الأقل كنت قرأت وراجعت الرواية جيدًا، فلا وجود لمثل تلك الكلمة في الرواية كلها.

صفق الحضور وانطلق الصفير في القاعة، وهم يضحكون على (أحمد)، الذي بدا الحرج والارتباك جليًا على وجهه، وبعد أن ساد الصمت أنهى الندوة، وجعل يلملم أوراقه، صافح الكاتب وشكره ثم انصرف، كان يبحث عنها، وأخيرًا رآها تقف على بعد عشرة أمتار تقريبًا مع صاحبتها المسلمة، إذ ذاك تجمد المشهد تمامًا..

صاحبتها جعلت تنقل بصرها بينهما، وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة خفيفة مندهشة لما يحدث، فتلك هي المرة الأولى التي يتجرأ فيها كلاهما هكذا، بش وجهها بشدة، فقد كانت تشفق على (ماليكا) كثيرًا لما عانته المسكينة من حبها لـ (أحمد)..

كان من الواضح أنهما لن يتراجعا في هذه المرة، وسيصارح بعضهما البعض بحبه للآخر، هكذا شعرت صاحبتها..

(ماليكا) كم أعشق اسمك فصار بالنسبة لي أجمل الأسماء وأحبها إلى قلبي..

لكن يا تُرى أني ستكون نهاية قصة حب كهذه؟ أشعر بأنها ستنتهي بكارثة، هكذا كان يشعر، ولو علم ما تخبئه له الأيام لما جرؤ أن يحبها ولو في سره..

في تلك اللحظات كان ينظر إليها، شاعرًا بقلبه كأنما سيقفز من بين ضلوعه ليعانقها، فما أجملها في ذلك اليوم..

شعرها.. شفتيها.. خديها.. عينيها.. كلها جميلة.. أناقتها التي لا تضاهيها فتاة في الجامعة كلها، نقل بصره إلى تلك التنورة القصيرة التي تعلو ركبتيها بقليل، أمر ينكره فهو يغار عليها بشدة ، لكنه يحدث حاله بأنه لو حدثت علاقة بينهما سيحاول بقدر الإمكان تغيير ما لا يرتضيه فيها، يثق تمام الثقة بأنه يمكنه إقناعها، بل وربما دعاها إلى الإسلام..

هو يتعشم هذا..

خمسة دقائق كاملة ، بدت لهما كدهر كامل، ورُغم أن (ماليكا) قد جاءت اليوم وفي قرارة نفسها (عليَ وعلى أحبابي)، لكنها ظلت ماثلة تعجز عن الحركة أو الكلام، أما هو فقد حسم أمره وقرر هو أن يبدأ..

قـرر أن يحطـم ذلـك الجـدار الفـولاذي الـذي يفصـل بينهمـا..

وعلـى الفـور تحـرك (أحمـد) نحوهـا مسـرعًا، ومـا كاد يدنـو منهـا حتـى أبطـأ الخطـأ، ومـال نحوهـا قائـلًا بصـوت، خـرج علـى الرغـم منه مهموسًـا:

- أحبك يا (ماليكا).. والله أحبك.

اتسـعت ابتسـامة صاحبتهـا، وابتعـدت عنهمـا، فعلـى الرغم من خفوت صوته، إلا أنها قد سمعته، (ماليكا) خفق قلبهـا -بل رقص- واضطربت، تأججت مشـاعرها، فغرت فاهـا، واتسـعت عيناهـا عـن آخرهمـا، بدت كالبلهـاء لا تعلم كيـف تتصـرف، ولا حتـى مـاذا تقـول، لكـن ودون أن تشـعر، وجـدت يدهـا تمتـد إليـه دون إرادة منهـا، كأنمـا أصيبـت بمتلازمـة الدكتـور (سـترينجغلوف) أو اليـد الفوضويـة كما يسـمونها، أمسـكت بيـده والتفـت كلاهمـا إلـى الآخر في بطء شـديد، التقـت عيناهمـا، وعـاد المشـهد ليتجمـد مـن جديـد، ومـرة أخـرى تتصـرف (ماليـكا) دون إرادة منهـا..

لقـد وجـدت نفسـها تضـع جبهتهـا علـى صـدره، وقـد أفلتـت يـده، جعـل هـو يفـرك أصـابعه في ارتبـاك، ود لـو ضـمها

إلى صدره بقوة وقبلها أمام الجميع، لكن قد فعلها أحد أصدقائه من قبل، وتم فصله هو وحبيبته من الجامعة، أنكر هذا الأمر بشدة، لكن ها هو ذا في نفس مكانه، ود لو احتضنها وقبلها وحملها ليطوف بها الجامعة كلها، ويصرخ بأنه يحب (ماليكا)، لكنه ما جرؤ أن يفعل خوفًا من أن ينالا نفس مصير صاحبيه، ظلا هكذا لنصف دقيقة، بدأ الأمر يلفت الأنظار، لكن وعلى حين بغتة أجهشت (ماليكا) ببكاء حاد أربكه..

بكت المسكينة كما لم تبكِ من قبل، صاحبتها أيضًا وقفت تتابع المشهد عن قرب، وقد سالت من عينيها الدموع..

هو أيضًا دمعت عيناه، لكنه لم يحرك ساكنًا..

وتلك كانت بداية الكارثة..

(4)

زوجك يا ماليكا

آهٍ لو تعلم كم كنتِ أحبك يا (أحمد).. لقد كسرتني ودمرتَ نفسك.. لم أحملك فوق طاقتك يومًا حتى تصبح من المرتزقة لتجني المال، طوال عمري وأنا أرتضي بقليلي، وأحبه ما دام من الحلال وما دمت بجواري، حين صارحتني بحبك لأول مرة، وقضيت اليوم تحدثني عن الإسلام وترسم لي الآمال، تخيلت أني سوف أعيش معك في جنة نعيم طوال حياتي، لكنك حولت كل تلك الأماني والأحلام إلى كابوس وجحيم ما بعده جحيم..

منذ ظهورك في حياتي انقلبت رأسًا على عقب، صرت أنت كل شيء في حياتي، صرت حبيبي وزوجي وأختي وأمي وأبي.. صرت أنت حياتي، وبعد أن منحتني كل شيء دمرت أنت أيضًا كل شيء..

ها أنا ذا أستعرض حياتي معك فأجدها غريبة خاوية من السعادة زاخرة بالألم والعذاب، كنت أتخيل أنني لن أستطيع أن أعيش بدونك، فكنت بعد زواجنا أنتظر عودتك من العمل بلهفة.. كنت أحصي الساعات والدقائق وما أكاد أراك حتى أستقبلك باشة مغتبطة، في البداية كنت تستقبلني بلهفة، وبعد انقضاء شهور قليلة، ما وجدت منك إلا جفاءً وصدودًا، فكنت تعاملني كما يعامل السيد خادمه، لست أدري لمَ كنت تعاملني هكذا، لكنه كان هكذا دأبك في الأيام الأخيَرة، فلا ذنب لي في معاناتك وضائقتنا المادية، فقد كنت أعاني مثلك ولا أبالي..

تخيلت للحظة أني كرهتك، لكنني كنت واهمة، فعلى الرغم من كل شيء، إلا أنه مازال لك مكان في قلبي..

قلبي الذي حطمته ولم تكترث لحاله، لست أدري كيف يصبح لك مكان فيه، رُغم كل ما فعلته به، لكنه هكذا الحب حين نشعر بدنو الفراق، يحيا المحبون على الذكرى الجميلة – فقط الجميلة – وينسون أي إساءة..

عانيت منك منذ ظهورك في حياتي، تعذبت من أهلي وخسرتهم بسببك، وتسببت علاقتنا بإراقة الكثير من دماء الأبرياء، ثم وفي النهاية تخليت عني وعن ابنك

الذي ولسبب لا يعلمه إلا الله ينفر منك نفورًا، حرمته من حضنك، وهو أيضًا أبى أن يرتمي فيه..

أتعلم يا (أحمد) لو أن أرواحنا ملك لنا نفعل بها ما نشاء، لانتحرت وأنهيت تلك الحياة والمعاناة التي أعيشها، فما عاد لها طعم ولا لون.. صارت مريرة كالزقوم الذي لا أعلم له طعمًا، لكني أعلم وصفه، ولولا أني أخشى أن أقابل ربي بما حرم علينا لفعلتها، لكن حين تشتد الأزمة، وأتذكر أن هناك الموت ينتظرني يطمئن قلبي..

أتذكر يا (أحمد) مثلي أول مرة جلسنا فيها سويًا وتحدثنا؟

أنا لا زلت أذكر كل لحظة.. كل همسة..

أذكرها كأنها منذ بضع ثوان، وأعلم جيدًا أنك تتذكرها مثلي الآن وتتحسر عليهاً.. لكن للأسف فات الأوان يا رجل..

هزت (ماليكا) رأسها في حسرة وحزن، وقالت من بين دموعها:

- فات الأوان يا (أحمد).



حين وضعت رأسها على صدره، كأنما لم يعد في العالم سواهما.. ما عادت تشعر سوى بوجوده فقط، اختفت كل الناس من حولها..

- ((ماليكا) الناس تنظر إلينا تعالي لنجلس في أي مكان نتحدث فيه)

قالها (أحمد) فتنبهت (ماليكا) لما يحدث، وإلى نظرات الناس إليهما، فأبعدت رأسها عن صدره، كفكفت الدموع بأناملها، ثم هزت رأسها موافقة، قالت بصوت أبح:

- حسنًا يا حبيبي..

لم تدرِ كيف نطقت بها، فشعرت بحرج شديدٍ يعصف بها، تنحنحت في خجل واحمرت وجنتاهاً، تبسمٍ هو حين حدث هذا، لكنه لم يُعقب، انصرفا، وفي كافتيريا بعيدة عن الكلية جلسا، أطرقت برأسها أرضًا تكاد تفقد الوعي من الخوف والحرج، ظلا على صمتهما هذا لحظات، إلى أن أنهى هو هذا الصمت، قائلًا:

- كنت على علم بأنك تحبينني لكن لِمَ ظللت على صمتك هكذا؟

خرج صوتها كالهمس في الآذان:

- أنا أيضًا كنت أشعر بأنك تحبني، وعلى الرغم من أنك أنت الرجل ومن المفترض أن تبدأ أنت بهذه المبادرة، لكنك آثرت الصمت عن البوح بحبك لي، فما بالك بي أنا؟

هز رأسه بودٍ، قائلًا:

- عندك حق يا (ماليكا).

عاد الصمت يغلفهما إلى أن عاد هو ليقطعه ثانية:

- (ماليكا) اسمك أم (مليكا) بدون الألف الأولى ؟.. أم هو (مليكة) بالتاء المربوطة وبلا ألف؟

ضحكت قائلة:

- بل الأولى، والدتي كانت متأثرة بالدراما الهندية كثيرًا، فكانت ترغب بتسميتي إما (كوشي)، فهي من عشاق النجمة (سنايا إيراني)، وهو الاسم الذي رفضه أبي بشدة.. والاسم الآخر كان (ماليكا) ارتضاه أبي رغم أنفه، فقد كان يرغب أن يمنحني اسم اخته (ماريا)، لكن أمي رفضت بشدة لأنها تكرهها لأسباب لا أعلمها.

قال مداعبًا:

- من الواضح أن والدك عنيف جدًا مع والدتك.

ضحكت في حرج، قالت وهي خفيضة الرأس:

- جدًا.

ثم استدركت في جدية:

- إنه يحبها ولا يحب أن يرفض لها طلب، وهي أيضًا تحبه وتحترمه.

في ارتباك أخرج علبة سجائره، دس واحدة منها بين شفتيه، وضع العلبة على المنضدة، فانعقد حاجباها دهشة، تساءلت:

- منذ متى وأنت تدخن؟ تلك هي المعلومة الوحيدة التي لم أكن أعلمها عنك.

أدخن منذ سنتين تقريبًا.

- لم أكن أعلم عنك هذا، رُغم أني أعلم عنك كل شيء.

- أيضايقك هذا؟

تعـود خفيضـة الـرأس لا تجيبـه، لكنه شـعر بضيقها فعلًا من هذا، أطفأ سيجارته على الفور قائلًا:

- ما دام يضايقك فأعدك بأن أكف عنه؟

نظـرت إليـه غـير مصدقـة، أبهـذه السـرعة يسـتجيب لهـا؟ فهـي تعلـم جيـدًا علاقـة الحـب المعقـدة بـين المدخـن ومعشـوقته السـيجارة، ومـدى صعوبـة المدخنـين في الإقـلاع عـن تلـك العـادة، بش وجههـا وقالـت:

- وعد؟

أجابها بالإنجليزية:

- promise.

تهللـت أسـاريرها، هيهـات تحولـت لهجتهـا إلى الجديـة، وهـي تسـأل:

- أتحبني حقًا يا (أحمد)؟

تفرس في ملامحها هنيهة، قال بعدها:

- مـا الـذي ترينـه يـا (ماليكا)؟ لـو قلت لـك بأنني أحبك أكثـر مـن نفسـي هـل سـتصدقينني؟ لـو قلـت لـك بأننـي لم ولـن أحـب غيرك، حتـى ولـو لم يجمـع بيننـا القـدر؟

لو أخبرتك بأنني أغار عليك حتى من الهواء الذي تتنفسينه؟ والله يا (ماليكا) أني أحبك لدرجة لو لم تكوني زوجة لي لأعتزل النساء، كل النساء ما حييت.

لم تجبه.. قلبها يرقص من فرط السعادة لكلامه هذا، توردت وجنتاها احمرارًا من شدة الخجل، تعلقت عيناها بعينيه، غلفهما الصمت لحظات، وبدت العيون كأنما تتعانق، ارتبك فضم قبضته وضعها على فمه متنحنحًا، فقالت هي بعد قليل في اهتمام بالغ:

- لكنني مسيحية وأنت مسلم.. هل تقبل الزواج من مسيحية؟ هل يبيح دينكم هذا؟

هز رأسه موافقًا، فانعقد حاجباها وسألته:

- حتى وإن بقيت على ديني بعد الزواج؟ هل ستستمر علاقتنا؟

جعل يفكر في عمق، شعرت بالقلق حيال هذا، شخصت به تستحثه على الجواب، فتنهد ثم قال في تؤدة:

- دعي الحديث عن هذا الأمر فيما بعد، دعينا نتعارف اليوم ببعضنا، والأيام بيننا ستجيب عن كل ما يعتمل بنفسك من أسئلة.. المهم أن...

قاطعته:

-لكن هناك أسئلة يجب أن أعلم لها جوابًا..

عاد يتنهد ثم أشار لها بيده أن اسألي، فأردفت:

-لأي فكر تنتمي أنت؟ أداعشي أم إخوان أم سلفي أم شيعي.....

قاطعها هو هذه المرة:

-أنا مسلم لا أنتمي لأي فكر أو جماعة.. أنا مسلم فقط لا علاقة لي بأي تيارات.. للأسف صورة الإسلام هناك من يسعون لتشويهها، كما يقول البعض أنه انتشر بالسيف... ووووووو إلى كل هذا الكلام الفارغ، فإن أخطأ شخص ملتح قامت الدنيا ولم تقعد، وأصبح كل ملتح إرهابي، وأصبح الإسلام دين إرهاب، كذلك المنتقبةً، إن أخطأت تتوجه الاتهامات لكل المنتقبات بتلك الوصمة، على حين أنه لا علاقة للحية أو النقاب بما هو كائن في هذه الأيام، لماذا لا نقول بأن هذا الملتحي السيء بأنه مجرد شخص سيء؟ كذلك المنتقبة.. لمَ يعممون الأمر على كل ملتح أو منتقبة بل وعلى الدين نفسه؟ أنا مسلم يا (ماليكاً) لا علاقة لي

بالـدم الحـرام، دينـي ينهـاني عـن ذلـك حتـى ولـو كان هذا الشـخص كافرًا.. دينـي دين رحمـة وستعلمين هـذا بنفسك..

- وأي مـن هـذه التيـارات الإسـلامية هـو الحـق بالنسـبة إليـك؟ أيهـم أقـرب لفكرك؟

- كل من هؤلاء يرى نفسه على الحق المبين كذلك أنا.

وأشار إليها، مستطردًا:

- كذلـك أنـت.. أنـت تؤمنـين بـأن المسـيح عليـه السـلام ابـن اللّٰه، ونحـن نؤمـن بـه لكننـا نؤمـن بأنـه عبـد اللّٰه ورسوله، أنتم تؤمنون بأنه قد صُلب وقُتل، ونحن نؤمن بأنـه لم يصلب ولم يقتل، بل رفعه اللّٰه إليه، حتى يعود في آخـر الزمـان للقضـاء علـى المسـيح الدجـال.. كلنـا يـرى نفسـه أنـه علـى حق، والآخرين علـى الضلال.

همت بأن تسأل، فأوقفها بإشارة من يده، قائلًا:

- يكفـي هكـذا يـا (ماليـكا)، لـن نخوض كثـيرًا في الحديث عن هذه الأمور، دعينـا نتحدث عني وعنك.. عـن حبنـا.. عـن مسـتقبلنا..

ابتسمت وقالت في هدوء:

- كما تحب.. هل تعلم يا (أحمد) كم كنت أتعذب بسببك؟ هل تعلم كم كنت أحبك و....

قاطعها مرة أخرى قائلًا:

- أعلم كل شيء يا (ماليكا).

التقى حاجباها متسائلة، فأطرق هو هذه المرة أرضًا، وقال في حرج:

- لقد كنت أنا (ريهام).. لقد كنت (ريهام الشافعي) صديقتك على الفيس بوك.

تدلت فكها السفلى، واتسعت عيناها عن آخرهما، وهتفت في ذهول:

- أنت!!

هز رأسه في حرج أشد، مغمغمًا:

- نعم كنت أنا، فتلك كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكنني أن أتواصل بها معك، خاصة مع صعوبة العلاقة بيني وبينك ، فلم.....

فجـأة انفجـرت (ماليـكا) ضاحكـة، جعـل هـو ينظـر إليهـا في ضيـق دون أن يتفـوه بكلمـة، دمعت عيناهـا من شـدة الضحـك، ثـم قالـت في مـرح:

- أنـت كنـت (ريهـام)؟ أنـت كنـت هـذه الفتـاة التـي كانـت تتحـدث معـي عن كل الأمور النسـائية كأنها فتاة مخضرمـة في عـالم الأنثـى؟ أنـت كارثـة.. والله أنـت داهيـة بحـق..

ثم تحولت لهجتها إلى الحزن دون مقدمات، متابعة:

- أتعلـم يـا (أحمـد) حتـى وأنـت تتقمص دور الأنثـى كنـت أحبـك.. أحبـك في كل حالاتـك يـا..

وغمزت له بعينها، وهي تتابع مداعبة:

- يا (ريهام).

وعـادت لتنفجـر ضاحكة، كذلـك فعل هـو، ضربا كفيهما ببعضهما، ثم وبدون اتفاق مسبق، كفا عن الضحك، فأطل من عينيه تساؤل، أما هي فقد قالت في حزن:

- وماذا بعد ذلك يا (أحمد)؟

وصمـت (أحمـد).. يمـم نظـره شـطر الأفـق وقـد طـال صمتـه، فلـم يجـد مـا يـرد عليهـا بـه..

ظلا يتحدثان طويلًا، ولم ينتبها إلى هذا الشخص الذي يصورهما بهاتفه، ومن عينيه يطل غضب الدنيا كله..



- (أين كنت يا (ماليكا)؟ لِمَ تأخرت هكذا؟)

تلك هي المرة الأولى التي تسألها أمها مثل هذا السؤال، والدها كان يجلس في الصالة ينظر لها في غضب، (ليزا) تنظر لها في ارتباك، نظرات توحي إليها بأن هناك كارثة محتملة الوقوع، فأمها تسألها والشرر يتطاير من عينيها، ارتبكت (ماليكا) وتلعثمت، لهجة أمها الصارمة تؤكد أنها تعلم بأمر لقائها بـ(أحمد)، بالتأكيد هناك من أبلغها بهذا، نظرت للأرض كأنما تستلهم منها جوابًا شافيًا يخرجها من هذا المأزق، ثم أجابت:

- كان هناك محاضرات أقوم.....

صرخت بها أمها في غضب:

- كاذبة يا (ماليكا).. أنت تكذبين علينا.

أسرع زوجها نحو الباب، هاتفًا:

- اخفضي صوتك الجيران سيسمعون بنا.

لوحت له بيدها في حنق، صارخة:

- فليسمعوا ما يحلو لهم، وهل ستكون الفضيحة مثل ما حدث هناك؟

والتفتت مرة أخرى إلى (ماليكا) صارخة:

- أخبريني حالاً أين كنتِ يا كلبة؟

ألقت (ماليكا) بحقيبتها أرضًا، هاتفة في غضب:

- كنت حيثما كنت، لا شأن لك بي.

إذ ذاك استشاطت الأم غضبًا، انتفشت أنفها واحمر وجهها، عيناها اتسعتا عن آخرهما، ضغطت أسنانها في قوة، حتى بدت وكأنها ستتحول إلى مستذئبة، فرفعت يدها إلى أعلى، هوت بها على وجه (ماليكا) بكل ما تملك من قوة، التي هزت الصدمة كيانها كله، وضعت يدها على خدها ترمق أمها في ذهول، فما كانت تتوقع منها أن تفعل هذا معها، تلك هي المرة الأولى التي تصفعها أمها بهذه القسوة، لذا كانت الصدمة شديدة عليها، أسرع والدها وأختها إلى والدتها التي استعدت لتسديد صفعة أخرى، أمسكاها وأبعداها عنها، والرجل يهتف:

- ما الذي تفعلينه هذا؟ أجننتِ؟

(ليـزا) تترجاهـا أن تهـدأ، وكأنهـا تحثهـا أن تـزداد ثورة، أجلساها على أريكة في الصالـة، (ماليكا) ما تزال ماثلة شاخص بصرها من أثر الصدمة لم تحرك ساكنة، الدموع تنهمر على خديها انهمارًا، وخيط رفيع من الدماء يسيل من جانب شفتيها، بدأت أمها تنهار وتبكي، صكت وجهها غير مرة، صارخة:

- من بين كل الناس تحبين مسلمًا ؟

إذًا فقد علموا، لذا لن أنكر ولابد من مصارحتهم وليحدث ما يحدث، فقالت في تحدٍ:

- نعم يا أمي أنا أحب مسلمًا، وسوف أتزوجه.

انهارت الأم أكثر، وعادت تلطم خديها وقد بدأ صوتها يتهدج، ضاربة فخذيها كأنما تعاقب نفسها:

- يا للمصيبة.. ياللمصيبة.. كيف تجرؤين على هذا ؟..

جلست (ليزا) إلى جوار أمها، تحاول تهدئتها، على حين توجه الرجل إلى (ماليكا)، أجلسها في هدوء، قائلًا في حنو:

- اهدئي يا حبيبتي ولنتحدث في هذا الأمر سويًا.

صرخت الأم، ملوحة بيدها:

- حبيبتك! حبيبتك؟ والمسيح أنت رجل عديم الفائدة.. إنها فاجرة.. فاجرة.

نظر إليها بطرف عينيه دون أن يعقب على كلامها، ثم جلس إلى جوار ابنته، دفنت (ماليكا) وجهها بين يديها وأجهشت ببكاء حار، ربت على ظهرها في حنان، مغمغمًا:

- (ماليكا) ما تفعلينه لن يفيدك في شيء، اهدئي وناقشينا في هذا الأمر.

مد يده فرفع رأسها إليه برفق، ثم نظر في عينيها مباشرة، بدأت (ماليكا) تهدأ قليلًا، فسألها:

- هل تقابلتما أكثر من مرة، أم تلك هي المرة الأولى ؟

هزت رأسها نفيًا، قائلة:

- تلك أول مرة ألتقيه فيها.

جعلت أمها تواصل ضرب فخذيها، صارخة:

- كاذبة.. والمسيح كاذبة.. اقطع ذراعي إن لم يكن عاشرها.....

قاطعها الرجل هذه المرة في عصبية:

- كفاك تخريفًا واسكتي وإلا تركت لكم المنزل.

هتفت:

- أهذا ما قدرت عليه؟ أن تترك المنزل، وتلك الفاجرة ستتسبب في حدوث كارثة.. ونعم الرجولة.

وجعلت تضرب فمها في عنف، متابعة:

- حاضر.. سأضع حذاءً في فمي وأصمت حتى تستريح أنت وتلك الـ..الـ..

لم تستكمل عبارتها، فما كانت تنتوي النطق به كلمة قبيحة، وجدت أن وقعها على ابنتها سيكون أشد من الصفعة بكثير، لذا آثرت ألا تنطقها، رغم أنها تتمنى غرس أنيابها في لحمها، وعاد الأب يواصل حديثه مع ابنته:

- كوني صريحة معي يا بنيتي فالأمر خطير، ليس سهلًا كما تعتقدين.

- صدقني يا أبي تلك هي المرة الأولى التي أتحدث فيها معه.

قلب كفيه قائلًا في حيرة:

- كيف يتعلق قلبك بشخص يا (ماليكا) لم تتحدثي إليه سوى مرة واحدة؟ هل يعقل هذا؟

- كنت أحبه في صمت منذ مدة وهو أخبرني بأنه كان يحبني أيضًا، وهو يرغب بالزواج مني.

هتف في انزعاج:

- إنه مسلم يا (ماليكا)، ولن يكون هناك توافق في الزواج، و.....

قاطعته في رجاء:

- لكنني أحبه يا أبي.

أمها تكتم غيظها، لكن من الواضح أنها قاب قوسين أو أدنى من الانفجار في وجهها ، تنهد الأب في توتر، ثم قال منهيًا الحوار:

- حسنًا يا (ماليكا)، استريحي في غرفتك قليلًا، بعدها سنذهب أنا وأنت إلى الكنيسة لمقابلة البابا، فهو قادر على توضيح أمور أنت غافلة عنها، وهو لديه القدرة على إقناعك وإخراج تلك الفكرة من رأسك تمامًا.

هـزت رأسـها موافقـة، توجهـت إلـى غرفتهـا، وأمهـا تصـرخ:

- والمسيح الحـي لـن تتزوجي هذا الكلـب إلا على جثتي.. أتفهمين؟ على جثة أمك.

تجاهلتهـا (ماليـكا) دخلـت غرفتهـا، وأمهـا تواصـل صراخهـا، وهـي تضـرب صدرهـا في عنـف:

- سـوف تتزوجـين مـن (چـورچ) ابـن (تريـزا) صديقتـي.. رغـم أنـه رآك مـع هـذا الحقـير وصـورك معـه، لكنـه لا يزال يحبك ويتمسـك بـك.. أصيل كأمك يـا ابـن (تريـزا). اسـتطاعت أن تربـي ابنهـا، وليسـت فاشـلة مثلـي في تربيـة أولادي.

هنا نهضت (ليزا) من جوارها بحركة حادة، هاتفة:

- ماذا تقولين ؟

نظرت إليها أمها في دهشة، قائلة:

- أقـول مـا سـمعتيه.. أصابـك الصمم؟ مـا حكايتك أنت أيضًـا في هذا اليوم الأسـود؟

شعرت الأم بأن ابنتها قد صُدمت حيال ذلك التصريح، دمعت عينا (ليزا)، توجهت هي الأخرى نحو الغرفة، وأمها من خلفها تقلب كفيها في ذهول، متمتمة:

- ماذا حدث للبنتين؟ أصابهما الجنون؟

وانتفض جسدها في عنف حين صفقت ابنتها الباب من خلفها في عنف، اتجهت (ليزا) نحو (ماليكا) مسرعة، تهتف بها في غضب:

- أصحيح ما تقوله أمك؟

انعقد حاجبا (ماليكا) في دهشة شديدة، مغمغمة:

- وما الذي تقوله أمك يسبب لك كل هذا الإزعاج؟

امتلأت عيناها بالدموع، قائلة بصوت مختنق:

- هل يحبك (چورچ) بالفعل؟

هزت (ماليكا) منكبيها، قائلة في عدم استيعاب:

- لا أعلم يا (ليزا) شيئًا عن هذا الأمر، فهو لم يصرح لي بهذا أبدًا، ولا حتى لمَّح به ، ولا أعلم لِمَ أنت منفعلة هكذا، وغاضبة مني بهذا الشكل، حتى وإن كان يحبني حقًا؟ ما شأنك أنت بهذا الأمر؟

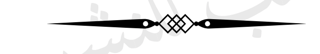
هنا انهارت (ليزا) صارخة:

-لأنني أحبه يا (ماليكا).. والله أحبه.

وارتمت بحضن أختها في انهيار تام، مجهشة بالبكاء، فضمتها (ماليكا) إلى صدرها بقوة قائلة في إشفاق:

- يا حبيبتي.

وكانت تنتفض في حضن (ماليكا) من فرط البكاء ، أما الأخرى كانت دموعها تسيل على وجنتيها في صمت تام.



(5)

الندم

ليتكم تعلمون ما أنا فيه..

أهٍ لو تعلمون..

ها هم أهلي من حولي يتمنون موتي بفارغ الصبر، كي يتخلصوا مني ومن عاري، أشعر بهم، أعلم ما تخفي ضمائرهم تجاهي، عجيب هو الاحتضار، أرى فيه ما لم أره طوال حياتي، بل والذي لن يستطيع أحد أن يراه، إلا لو وصل إلى تلك اللحظة الحرجة في عمره..

لحظة الاحتضار..

نعم لقد وصلت إلى نهايتي أنا أعلم بهذا..

أرجوكم أطفئوا هذا القرآن فأنا لا أطيقه، ولا أطيق سماعه فهو يحرقني، ألا تسمعون صراخي؟

ألا يرحمني أحدكم من هذا العذاب؟

أخيرًا استجبتم لي، لكن مالي أرى وجوهكم مكفهرة، إنه لشيء صعب سماعه، لست أعلم كيف لا يحرقنكم مثلما يفعل بي..

لست أعلم كيف يكون هذا القرآن رحمة للعالمين وهو سبب عذابي..

كم أشعر بالألم لهذا الذي يحاول أن يلقنني الشهادة..

أي شهادة ترغب أن أقولها ؟

قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله..

مَن محمد هذا؟!

مَن هو الله ؟

ما من إله لهذا الكون، كل ما نحن فيه هذا مجرد صدفة بحتة نشأ منها هذا الكون، لو أن هناك إله، لما ساد القتل والحرب في العالم..

أني لهذا الكوكب من إله، ولا يتدخل في إنقاذ الناس من ويلات الحرب ؟

ألا يشفق على النساء اللاتي ينتهك أعراضهن في كل مكان؟

ألا يغضب من أجل الشيوخ والأطفال الذين تراق دماؤهم كل ساعة وفي كل مكان؟

هم يقولون لا إله إلا الله، وأنا لا زلت أصر أنه ما من إله..

لا تتعبوا أنفسكم فأنا لا أؤمن بربكم..

أسمعكم تدعون لي، لو أن ربكم هذا موجود لاستجاب لدعائكم ودموعكم، خاصة أنت يا (ماليكا)، فأنت تدعين بكل صدق وخشوع..

لكنه لم ولن يستجب، هذا إحساسي ليس لشيء سوى أنني لا أؤمن بوجود الله..

صدقوني لو أنه غفور رحيم كما يقول لاستجاب..

حين كنت مسلمًا صليت له ودعوته ما استجاب لي في أي شيء، وما تغير في حياتي أي شيء، لا حين كنت مسلمًا،

ولا حين اعتنقت المذهب الشيعي، ولا حين كفرت بوجود الإله من الأساس..

اختلاف مذهبي وعقيدتي، وحتى كفري به كلهم سواء لا فارق بينهم..

والآن أنتم تجهلون مثلما كنت أجهل من قبل، لكنه هكذا المرء كلما ازداد جهلًا كلما ظن نفسه أعلم أهل الأرض..

طوال حياتكم وأنت تصلون وتدعونه، ولا يستجيب لكم وها أنتم الآن تكررون نفس الشيء وما زلتم تنتظرون أن يأتي ذلك بجديد..

قال العالم (ألبرت أينشتاين) أنه من الغباء فعل نفس الشيء مرتين بنفس الأسلوب ونفس الخطوات وانتظار نتائج مختلفة، فما لكم أفلا تعقلون؟

حين ظُلمت في بلدي ودعوته بأن يرفع عني الظلم لم يرفعه، رُغم بكائي وتوسلاتي، وحين هددته بأنه إن لم يستجب لي فسأكفر به إن لم يفعل شيئًا، تركني ولم يبالِ بي، هذا إن كان له وجود من الأساس..

حين كنت في سوريا، قتلت الكثير من الأبرياء والأطفال والنساء، وهتكت أعراض، كلهم كانوا يتضرعون إليك بأن

ترحمهم مما نفعل بهم، وأن ترفع عنهم العذاب، وما كنت براحمهم ولا رافعًا عنهم العذاب..

لو كان المسلمون على حق، فلماذا يتركهم ربهم هكذا تحت رحمة غيرهم ؟

يُقَتَلون في كل مكان، يُحَرَقون حتى فيما بينهم، لا يرحمون أنفسهم، ولم يرحمهم غيرهم..

لو أن لنا من خالق لرحمنا مما نحن فيه، لهدانا، فأمهاتنا اللاتي أنجبننا يحببننا أكثر من أنفسهن، فما بالكم بمن خلقنا، هذا إن كان لنا من خالق من الأساس، أو للكون نفسه من خالق، فإن كان له من خالق ما تركهم يعبثون به ويفسدون في ملكه هكذا..

لا زلت أذكر ذلك اليوم الذي أمرت فيه ذلك الشاب أن يسجد لصورة الرئيس السوري من دونك، وهو يترجاك ويدعوك وأنت لا تتدخل..

حين كنت أرى هذا المشهد على اليوتيوب تنتابني الحسرة على ما يفعلونه بالمسلمين، وها أنا ذا أفعله بيدي..

لا زلت أذكر هذا المشهد كأنني أراه الآن..



بعد قصف قوات النظام للمنازل، وعلى أنقاض ذلك المنزل في حلب، جعل هذا العجوز ينبشها في جنون، وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- أين أنتم يا أولادي؟ أين أنتم يا أحبابي؟ أين أم أولادي؟

الناس من حوله يبكون، يحاولون إيقافه، لكنه يدفع أيديهم عنه في عنف، يواصل الحفر بيديه العاريتين، اللتين سالت منهما الدماء بغزارة، فشلت كل السبل لإيقافه، إلى أن يأس هو، نهض وطفق يلطم خديه صارخًا:

- راحت أولادي يا رب.. رحل عني كل ما أملك يا رب.. قتلهم بشار وجنوده.. اللهم ألهمني الصبر.. يا رب.. يا رب.

الكل من حوله يبكي بصوت مسموع، تمتلئ أجسادهم بالغبار والسحجات، لا يلوون على شيء، ما بأيديهم حيلة، فكثير منهم فقدوا منازلهم مثله، وكثير منهم فقدوا ذويهم، نزل العجوز من فوق الأنقاض، وأخذ يصرخ ودموعه تسيل على خديه ممزوجة بالغبار:

- أين أنتم يا أمة (محمد)؟ أين أنتم يا أمة المليار؟ بالله عليكم أنقذونا.. يا حكام العرب أغيثونا..

أخبرونا أين نذهب؟ أين نخفي أولادنا ؟ في بيوتنا نباد وتهتك أعراضنا، وفي الشوارع تراق دماؤنا.. نحن نباد.. والله نباد.. أينما ذهبنا وجدنا القصف فوق رؤوسنا.. دمروا بيوتنا.. قتلوا أطفالنا.. هتكوا أعراضنا.. يا الله.. يا الله.. ما لنا غيرك يا الله.. مالنا غيرك يا الله..

ظل يكرر تلك العبارة الأخيرة كثيرًا، حتى سقط بغتة على وجهه، أسرع الناس من حوله إليه، مال البعض منهم نحوه لفحصه، ما زادهم هذا إلا نحيبًا وبكاءً..

لقد مات المسكين..

مات حسرة على حال أمة أصابها الوهن..

لم يتحمل قلبه الضعيف فقده لأولاده وزوجته، فلحق بهم إلى حيث ذهبوا..

هم الرجال بحمل جثمان الرجل، لكن إذ ذاك دوي صوت طلقات الرصاص من كل حدب وصوب، انتابهم الرعب، سادت بينهم الفوضى، منهم من نجا بنفسه، ومنهم من خر صريعًا، وظهر بالقرب منهم مجموعة من قوات كالنظام كانوا يتربصون بهم من البداية، جعلوا

يقلبونهم يتفحصونهم، من وجدوه حيًا يفجرون رأسه برصاصاتهم، حتى ومن وجدوه ميتًا فعلوا به هذا، كي يتأكدوا من موته..

إبادة بلا رحمة..

من بين هؤلاء القوات أو بالأحرى المرتزقة كان (أحمد) ومعه ذلك الروسي (سوفيتش)، ما أن تأكدوا من موت الجميع، حتى شرعوا يطاردون من فر منهم بين أنقاض المنازل، حتى وجدوا منزلًا ما زال قائمًا بين الأنقاض، أطلقوا الرصاصات على بابه، ثم ضربوه بأرجلهم، وجدوا به رجلًا في أواخر العقد الرابع من عمره، وزوجته، ما أن اخترقوا المنزل وشهروا أسلحتهم في وجهيهما، حتى جثيا على ركبتيهما، ورفعا أيديهما إلى أعلى، وهما ينطقان الشهادة بصوت مرتفع، دخل أربعة منهم، وانصرف الباقون لمطاردة الناس، بمنتهى الغل والغضب اندفع (أحمد) نحوهما، ضرب وجهيهما ببيادته فأسقطهما في عنف، هاتفًا بهم:

- أترغبون الحرية يا أولاد العاهرة؟

قال الرجل بصوت مرتجف:

- بالله عليك نحن ليس لنا شأن بما يحدث.. نحن مساكين.

صرخ بهما:

- انهضا.

نهض الرجل والمرأة تحتمي به منهم، فضحك (أحمد) في سخرية شرسة، قائلًا:

- أتحتمين به؟ أتظنينه رجلًا ؟

بكت في قهر ومرارة، زوجها يجعلها خلفه، فيحيطها بيديه لئلا يمسسها أحدهم، و......

أرهف الروسي (سوفيتش) السمع جيدًا.. ما هذا الصوت ؟ أهو قرآنهم؟

إنه هو..

ما له هذه المرة يمس شغاف قلبي..

صحيح هو لا يفهمه، لكنه شعر بسكينة غريبة تجتاحه..

تجاهل ما يحدث ذهب إلى مكتبة صغيرة في ركن قريب من الصالة، وأمسك كتابًا ما شرع يقلبه بين يديه..

إنـه مصحـف فتحـه وجعـل يقلـب في صفحاتـه، لحسـن حظـه أنـه مترجـم للإنجليزيـة وهـو يجيدهـا..

وتوقفت عينيه عند تلك الآية مترجمة

﴿أَوَلَـمْ يَـرَ الَّذِيْـنَ كَفَـرُواْ أَنَّ السَّـمَوَاْتِ وَ الأَرْضَ كَاْنَتَـاْ رَتْقَـاً فَفَتَقْنَاْهُمَـاْ وَجَعَلْنَـا مِـنَ الْمَـآءِ كُلَّ شيء حَيٍّ أَفَـلا يُؤْمِنُـون﴾..

يا للشيطان.. هل يعقل هذا؟ إن هذا الكلام منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام..أني لقائله أن يعرف شيئًا كهذا والعلم الحديث لم يتوصل إليه إلا قريبًا..

هل من المعقول أن يكون هذا الرجل كاذبًا؟

هل هناك رجل يمكنه أن يخدع كل هؤلاء الناس طوال قرون ؟

أم أنه ساحر كما يقال عنه؟

شرد وجال بفكره، فكان ينظر إلى لا شيء، حتى أفاق بغتة من شروده حين صرخت المرأة تتوسل إلى (أحمد) بألا يمسها، والرجل يذود عنها في رعب حقيقي، و(أحمد) يضحك في جنون، لكن انقلبت سحنته فجأة وانطلقت

رصاصته في صدر المرأة أردتها قتيلة، فوجئ (سوفيتش) بأن الرجل يقف شبه عارٍ إلا من قطعة صغيرة من الملابس تخفي قليلًا من عورته، حتى أنه تساءل في قرارة نفسه: (ما المتعة في أن يجعل ضحاياه يخلعون ثيابهم أمامه؟ ما الذي يكسبه بإذلالهم إلى هذا الحد؟ لِمَ يرغب بإهانتهم قبل قتلهم؟

أخرج (أحمد) صورة كبيرة للرئيس السوري كان قد قام بطيها في جيبه، فردها وألقاها على الأرض، هاتفًا بالرجل في غضب:

- اسجد لربك.

نظر الرجل إلى زوجته المضرجة بدمائها في حسرة، وقد كانت رأسه تهتز بشكل ملحوظ، كأنما عنقه ما عادت قادرة على حملها، الصدمة جعلته كالمعتوه، فلم يذرف حتى دمعة واحدة رُغم ما يراه من عذاب..

وأنى له أن يدرك معنى البكاء وقد غاب عقله من هول ما رأى..

وفي بطء نظر إلى الصورة وبصق عليها، أجبره الرجلان مع (أحمد) بأن يجثو على ركبتيه أمامها،

وأمسك الأخير برأسه يدفعها دفعًا نحو الصورة هاتفًا به بصوت هادر:

- اسجد يا ابن العاهرة.. قل لا إله إلا (بشار).. قل(بشار) ربي.

وعلى ظهر المسكين يهوى الجنديان الآخران بأرجلهم في قسوة يسبونه بأقذر الألفاظ، يتأوه الرجل في ألم، يترك (أحمد) رأسه، فيعود الرجل ليبصق على الصورة، امتزج لعابه بدمائه، فأخرج (أحمد) عصا غليظة ظل يضربه ضربًا عشوائيًا في كل مكان من جسده، والرجل يصرخ من فرط الألم، ليس على لسانه سوى كلمة:

- يا رب.

يزداد (أحمد) عليه ضربًا، وهو يقول:

- ادع ربك فلينجدك منا إن كان له وجود.

ظل الرجل يتلوى على الأرض، حتى سكنت حركته تمامًا..

عجيب أمر هؤلاء الذين يموتون ها هنا..

رائحة دمائهم ذكية أشمها بوضوح وتلك ليست المرة الأولى، فها هي المرأة ومن بعدها زوجها، الذي تسيل الدماء من أماكن متفرقة من جسده..

هكذا يقول لسان حال (أحمد)..

الروسي (سوفيتش) يتألم لما يحدث، ولسان حاله يقول:

- ما هذا الذي تفعلونه بأنفسكم يا عرب.

أشاح بوجهه عن تلك المشاهد البشعة، وضع المصحف في جيبه دون أن ينتبه أحدهم، ثم غادروا المنزل، مغلقين الباب من خلفهم بعدما أتموا مهمتهم الحقيرة، وبدأت القوات تتجمع ويعودون إلى ثكناتهم مرة أخرى إلى أن تحين لهم مهمة أخرى لإراقة المزيد من دماء الأبرياء بلا رحمة..

لك الله يا سوريا..

لله الأمر من قبل ومن بعد..



كانوا في قمة السعادة حين عادوا إلى ثكناتهم، يحكي كل منهم للآخر عما فعله بالأبرياء من الناس، منهم من يتباهى بمعاشرة امرأة أمام زوجها، ومنهم من تتنازعه السعادة، لأنه اعتدى جنسيًا على رجل أمام زوجته وأبنائه،

ومنهـم مـن يتلـذذ مـن تضرعـات النـاس إليهـم وتقبيلهـم لأقدامهم بأن يرحموهم، وحده (سوفيتش) لم يكن يرتضي عن أي شـيء ممـا حدث..

وحـده شـعر بشـيء يجثـم علـى أنفاسـه، وأن الدنيـا قـد ضاقـت بـه، لأول مـرة يشـعر بأنـه في أمس الحاجـة للبـكاء، فما الذي أصابه، لقد أتى إلى هنا من أجل المال، عن طريق الديـب ويـب كأحـد المرتزقـة، وليس ضمـن قـوات الجيـش الروسـي، التـي تشـارك النظام السـوري جرائمـه، لكنـه الآن كـره المـال بل وكره نفسـه..

إنـه الآن يحتقـر نفسـه، ويلعـن تلـك السـاعة التـي قـرر فيهـا القـدوم إلى هنـا..

منـذ أن جـاء تلـك البلـد ومـا عـاد علـى سـجيته، لديـه شـعور غريب بأنه لن يخرج منها أبدًا، يراوده إحسـاس بأنه سـيموت فيها..

توجـه إلـى الحمـام، جلـس علـى المرحاض دون أن ينـزع سـرواله، أخـرج المصحف المترجـم، جعـل يتصفحـه سـريعًا بعـض الآيـات يتوقـف عندهـا، فيشـرد بعقلـه وهـو يتدبـر معانيها، ثم يعود لمطالعته، حتى زاد همه أكثر وأكثر..

ما يقرب من الساعة وهو يجلس على المرحاض، يطالع المصحف، ولم يشعر بتلك الدموع الدافئة التي سالت على خديه في بطء شديد..

محال أن يكون هذا كلام بشر..

هذا الكلام يدخل إلى القلب مباشرة، طوى المصحف، عاد يخفيه في ملابسه العسكرية، غادر الحمام بعد أن غسل وجهه، لكن.أني له أن يغسل ذلك اللون الأحمر الذي كسا عينيه من فرط الحزن والمرارة، كان معروفًا بين أصحابه بأنه كثير المرح، لكنه الآن أشدهم كآبة، حتى أن أصحابه قد شعروا بالحيرة من أمره، كلما حاول أحدهم الاستفسار عن سبب تلك الحالة النفسية السيئة التي تجتاحه، تحجج لهم بأن حبيبته (ناتاليا) قد أوحشته، لكن جميعهم يعلم أنه يطوي جوانحه على شيء آخر، لم يكن أحدهم يعلم أن ما يخفيه عنهم سوف يغير مجرى حياته تمامًا، كذلك لم يكن يكذب عليهم حين أخبرهم بأن حبيبته قد أوحشته بالفعل، فكم يشتاق إليها، صحيح أنه عرف الكثير غيرها، فعل معهم كل شيء، لكنها الوحيدة التي ما مس منها شعرة واحدة، ربما لم يحاول معها، ربما يخشى أن يلقى منها ردة فعل عنيفة، لكن وفي كل الحالات فقد كان يخشى أن يخسرها..

تذكر حين التقى بها آخر مرة كي يودعها، وهي تبكي وتترجاه ألا يسافر، صحيح أنه أخبرها بأن تلك الرحلة سوف تغير مجرى حياته تمامًا، وأنه سيعود إليها شخص آخر، لكنها كانت تلح عليه بأن يظل إلى جوارها، وأن قلبها لا يطمئن لهذا الأمر، لكنه أصر أن يسافر، والآن هو يندم أشد الندم لبعده عنها، ويتحسر على ما اقترفت يداه في هذا البلد من جرائم..

صحيح أنه لم يقتل بيده، لكنه على الأقل شارك مع المشاركين ولو بوجوده معهم، مجرد تواجده بينهم يجعله يشعر بالذنب، خاصة اليوم وبعدما رأى ما رآه من جرائم في حق هذا الشعب المسكين..

ازداد احمرار عينيه، وبدا كأنه سينفجر من البكاء، وهو يقول لنفسه:

- سامحيني يا حبيبتي، لم أكن أعلم أنني سأكون بمثل تلك القذارة، لكن أعدك حين أعود سوف أكفر عن أي شيء ارتكبته، لست أعلم كيف سأفعل، فما من شيء في هذه الدنيا يكفر عن ذنبي، لكنني سأحاول أن أفعل..

واعتصر عينيه بأصابعه، مستطردًا في مرارة:

- هذا إن عدت.

ولج غرفته وجد فيها (أحمد) يتمدد على فراشه، مشعلًا سيجارته يشرب منها في استمتاع، ينظر إلى دخانها في هدوء، يراقبه بعينيه حيثما ذهب، حدجه (سوفيتش) بنظرة ساخطة، دون أن يلقي إليه بالتحية، فاعتدل (أحمد) وقد انعقد حاجباه دهشة، وسأله:

- ماذا بك يا (سوفيتش)؟ لم تنظر إليَّ بهذا الشكل؟

بدأ يغير ملابسه، وهو يسبه بالروسية التي لا يفهما بالطبع، ويلعن من هم على شاكلته من الرجال، صحيح أنه لم يفهم ولا حرف واحد مما قال، لكن ملامحه توحي إليه بأنه يسبه، فعاد يسأله:

- ماذا بك يا (سوفيتش)؟ أشعر بأنك لا تطيقني.

نظر إليه في لا مبالاة، ثم قال له بعربية ركيكة:

- لا أفهم ما تقوله يا.....

الكلمة الأخيرة كانت لفظًا قبيحًا بالروسية فيما معناه أنه شاذ، فتح (أحمد) فمه في بلاهة، قائلًا:

- حبيبي أنت يا (سوفيتش) حين تمدحني بالروسية.

وتابع بالإنجليزية:

- أراك غير راض عما نفعل، هذا يبدو واضحًا على وجهك في كل مرة، فلم أتيت إلى هنا رغم أنك تعلم كل شيء قبل أن تأتي؟

جلس على فراشه، ثم أشعل هو الآخر سيجارته، نبذ دخانها في قوة، قائلًا بالإنجليزية في ازدراء:

- أتعلم يا (أحمد) أتعجب على حالك كثيرًا، كيف تحمل هذا الاسم (أحمد)، اسم نبي المسلمين وتكفر بوجود إله؟

اتسعت عينا (أحمد) ذهولًا، وهتف:

- أتعلم أن نبي المسلمين يحمل هذا الاسم أيضًا؟ هو معروف عند الجميع باسم (محمد) فكيف علمت أنت بهذا الاسم؟

أراح ظهره على الفراش، عاد يسحب نفسًا أكثر عمقًا من سيجارته، قائلًا:

- أنا اهتم كثيرًا بأمر هذا الرجل، من كثرة ما يدور حوله من جدل، بل وأهتم بمعرفة كل شيء عن الإسلام.

ثـم التفـت إلى (أحمـد)، قائـلًا في لا مبـالاة ظاهـرة، وفضـول خفـي يسـتبد بكل خلجـة في جسـده:

- علمـت أنـك كنـت مسـلمًا في يـوم مـا، ثـم ألحـدت فكلمنــي عنـه.

سأل (أحمد) في اهتمام:

- عن الإلحاد؟

هز (سوفيتش) رأسه نفيًا، قائلًا في هدوء:

- بل الإسلام يا (أحمد).

اجتاحه ذهول عارم، مغمغمًا:

- الإسلام!

هز رأسـه موافقًا، تغلب (أحمد) على دهشـته، ثم شـرع يحدثـه عـن الإسـلام وعـن نبـي الإسـلام تـارة بالإنجليزيـة، وتـارة بالعربيـة حـين يصعـب عليـه الـكلام، و(سـوفيتش) ينصت إليه بكل كيانه، يحاول بقدر المستطاع أن يفهم منه مـا يقول..

(أحمد) يتحدث عن الإسـلام في سـخرية شـديدة، يقوم بعمـل حـركات مسـرحية، يضحـك في اسـتخفاف بالرسـول

الكريم، وبالله عز وجل، فكان يسعل من فرط الضحك، لدرجة جعلت (سوفيتش) نفسه يتعجب مما يفعله، فما يقوله لا يدعو إلى الضحك أبدًا..

ما يقوله يدعو إلى الحسرة..

يدعو إلى البكاء..

(أحمد) الذي كان يومًا من الأيام مسلمًا، يسخر من الإسلام ومن الله جل وعلا، ومن ملائكته ورسله بمنتهى القذارة، و(سوفيتش) الذي لا يعلم شيئًا عن الإسلام يمس الكلام عنه شغاف قلبه، رغم الطريقة السخيفة التي يتحدث بها هذا الأول عنه..

تحدثا كثيرًا، (سوفيتش) يسأل في اهتمام بالغ، و(أحمد) يجيب في استهتار تام، لكن الأول كان يأخذ منه الكلام على محمل الجد، ويقوم بتحليله، وحين لاحظ اهتمامه البالغ بما يقول، سأله في حيرة:

- عجيب أمرك يا صديقي.. لمَ كل هذا الاهتمام رغم أنك من المرتزقة مثلي، ومَن هم على شاكلتنا لا يشغل بالهم دين ولا رب ولا مبادئ.. نحن رجال لا يحق لنا أن نؤمن بأي دين، فنحن أناس بلا عقيدة سوى المال.. نحن لا نؤمن بإله غيره، أم أن لك رأيًا آخر؟

لوح له بيده، أطفأ سيجارته في المنفضة، ثم أولاه ظهره، قائلًا في برود وبلغته الروسية، كي لا يفهمه (أحمد):

-نَمْ يا ابن العاهرة.

الغريب أنه قد أطاعه، وهو يقول في بلاهة:

-وأنت من أهل الخير يا صديقي.

ابتسم (سوفيتش) ابتسامة ساخرة، ثم شرد بذهنه فيما قاله (أحمد) عن الإسلام، وما أن سمع صوت شخيره المنتظم، حتى أخرج المصحف المترجم، وعلى الضوء الخافت بالغرفة، أخذ يقرأ فيه في اهتمام بالغ..

ظل (سوفيتش) يبحث عن الإسلام من (أحمد) ومن غيره، حتى أنه في أحد الليالي، وجد نفسه يبكي بكاءً شديدًا على فراشه، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يقول:

-أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

كان يقولها بعربية ركيكة، شعر بعدها براحة وسكينة غريبة تتسلل إلى نفسه، ووجد نفسه يزداد بكاءً ونحيبًا ولا يستطيع السيطرة على نفسه مطلقًا..

عجيب أمرك يا (سوفيتش)..

تتلقى ما تلقيته عن الإسلام من ملحد لا يؤمن بإله، وتُسلم أنت ويبقى هو على حاله..

عجيب أمرك حقًا..

(6)

سوفيتش

(ناتاليـا)، منـذ أن اعتنقـت الإسـلام، وأنـا في خـير حـال، أصبحـت بالفعل كمـا وعدتك شـخصٌ آخر، أصبحـت (سـوفيتش) جديـد غـير الـذي تعرفينـه، وأعظـك باعتنـاق الإسـلام أنـت أيضًـا، فإنـه الحـق يـا (نـاتاليـا)، ابحثـي عنـه مثلـي قبـل فـوات الأوان يـا حبيبتـي، دعـك ممـا تسـمعينه من وسـائل الإعـلام المختلفـة، وابحثـي عـن الحقيقـة بنفسـك..

(ناتاليـا)، لا أعلـم متـى سـنلتقي، ولا حتـى إن كنـا سـنلتقي ثانية أم لا، لكن كل ما أعلمه أنني أحبك ولن أحب غيرك، وأخـاف عليـك أكثر ممـا أخـاف علـى نفسـي..

أعلـم أنـك تشـعرين بالاسـتياء مـن إسـلامي، وضحكت كثـيرًا حـين علمـت أن سـبب رفضـك لـه، أنـه يتيـح للرجـل أن

يتزوج من أربعة نساء، وأنا أعدك بأنه لن يكون في حياتي كلها غيرك أنت، لست أدري لماذا أشعر بأنه ما عاد في عمري بقية، وأن تللك ستكون آخر رسالة ستصلك مني، لكن كل ما أرجوه منك أن تصدقيني في كل ما أخبرتك به، فما قلت لك إلا الحقيقة كاملة عني، فإن عدت إليك أعدك بأن نتزوج على الفور، وأعدك بأنني سأحافظ عليك وعلى أولادنا، أما إن أصابني مكروه فأرجو منك ألا تنسيني، وأن تصلي من أجلي وتدعين لي بالرحمة والمغفرة، وأن يسامحني الله عن كل ما فعلته، وأرجو منك أيضًا أن تسامحيني أني تركتك.. أرجوكِ سامحيني، فأنا أحبك يا (ناتاليا).. والله أحبك..

أنهى رسالته الصوتية تلك، وأرسلها لـ(ناتاليا) عبر الواتساب، ثم أغلق هاتفه، وسالت دمعتين دافئتين على خده، ربت (فراس) على ظهره، فالتفت إليه في بطء، مغمغمًا بعربيته الركيكة:

- متى سنخرج يا صديقي؟

تجاهل (فراس) سؤاله وجلس إلى جواره، قائلًا:

- ماذا بك يا (سوفيتش)؟

تنهد في عمق، وجعل يديه على ركبتيه، قائلًا:

- لا أطمئن هذه المرة يا (فراس)، منذ أن قررت الانضمام إلى رجال المقاومة، وترك هؤلاء القتلة، وأنا أشعر بالحماسة في كل عملية نقوم بها، إلا هذه المرة بالذات، أشعر ولأول مرة بالخوف.

ابتسم (فراس) ابتسامة مريرة، خفض رأسه أرضًا وهو يقول في حزن:

- يمكنك التراجع يا (سوفيتش)، لو أردت مغادرة البلاد يمكننا إخراجك وإرجاعك إلى بلادك إن شئت في أي وقت، وصدقني لن ننسى وقفتك إلى جانبنا وتضحيتك بنفسك وتعرضك للخطر بسببنا..

ثم رفع رأسه إليه، مستطردًا بحزن أشد:

- ولن أنسى أنك أنقذتني ومَن بقي من أسرتي من هذا السفاح الملحد، الذي كاد يقضي علينا.. جميلك هذا على رأسي ما حييت ولن أنساه يا (سوفيتش).

احتضن رأس (فراس)، وهو يقول:

- لا تقـل هـذا الـكلام يـا رجـل، ولا تتحـدث فيـه مـرة أخـرى، فقـد تأخـرت في اتخـاذ القـرار الحاسـم، فقتـل هـذا الكلـب...

- لم يستطع اتمـام عبارتـه، فربت (فراس) على قدمه، ونهض من جواره وهو يقول:

- هـذا ليس ذنبـك يـا (سوفيتش)، إنـه أجلـه ولـو أن لـه في العمـر بقيـة مـا رحـل عنـا، لكنهـا هكـذا إرادة اللّه، بالتأكيد هو في مكان أفضل الآن، لا ظلم فيه ولا قتل.. أكيـد هـو ينعـم الآن أمـا نحـن فلنـا اللّه.

غيـر (سوفيتش) الحـوار علـى الفـور، حـين شـعر بحـزن (فراس)، حـين ذَكَّـره بمـا أصـاب ابنه، فقـال في حمـاس:

- أسوف نقوم بتلك المهمة الآن ؟

هز (فراس) رأسه في حماسة أشد، هاتفًا:

- نعم يا صديقي سنبدأ التحرك على الفور.

والتقت أيديهما في قوة، خرجا وتجمع رجال المقاومة، لبـدء التحـرك للهجـوم علـى بعض مدرعـات النظـام، في طريقهـا إلـى مـكان مـا لمهاجمـة الأبريـاء وإبادتهـم، ودارت

بينهم وبين رجال المقاومة حربًا شعواء، راح ضحيتها الكثير منهم، لكنهم تمكنوا بفضل الله من تدمير عدة مدرعات، والبقية الباقية عادت أدراجها هاربة كالجرذان، أصيب (سوفيتش) هذه المرة بإصابة بالغة، أعاده رجال المقاومة معهم، وفي مكان سري أرقدوه على الفراش، أحضروا له طبيبًا، فعل ما بوسعه لإنقاذه، خرج من عنده يهز رأسه في أسف، استقبله رجال المقاومة في توتر بالغ، أما (فراس) فقد اكفهر وجهه، متسائلًا في خوف عارم:

- ما الوضع يا دكتور؟

عاد الطبيب يهز رأسه، مغمغمًا:

- للأسف يا (فراس) حالته خطيرة جدًا، الأمر كله الآن بيد الله وحده، فلن يقدر أحد من البشر أن يفعل له شيئًا.

عاد (فراس) يسأل:

- هل ننقله إلى المستشفى؟

أجابه في أسف:

- ليس هناك داع يا رجل، فقط ادع له، فهو على مشارف الموت بين لحظة وأخرى.

تركه (فراس) وهرول نحو الغرفة التي يمكث فيها (سوفيتش)، أغلق بابها خلفه، ثم دنا منه في بطء، وقف إلى جوار الفراش الذي يرقد عليه، قائلًا في حزن بالغ:

- سامحني يا رجل ما كنت أعلم أن هذا سيحدث.. ليتك ما خرجت معنا.. كنت تشعر بما سيحدث، لذا كنت تشعر بالخوف.

وسالت الدموع من عينيه انطوى يقبل رأسه ويديه، قائلًا من بين دموعه:

- سامحني يا (سوفيتش) بالله عليك.. أنت تنقذ حياتي وحياة زوجتي وابني، وأنا أتسبب في قتلك، لن أسامح نفسي أبدًا على ما حدث.. لن أسامحها أبدًا.

- (ناتاليا).. (ناتاليا) يا (فراس).

رفع (فراس) رأسه نحو مصدر الصوت، وقد تهللت أساريره، حين قال (سوفيتش) تلك الكلمات بصوت بالكاد يسمعه، ربت على يده برفق، قائلًا في سعادة بالغة:

- حمدًا لله على سلامتك يا غالي.

عاد (سوفيتش) يكرر الاسم أكثر من مرة، ثم تابع في وهن:

- عدني بأن تصل إليها.

لم يكن (فراس) يعلم عن أي شيء يتحدث، لكن ما كان عليه إلا أن يريحه بأنه سيفعل، لذا فقد هز رأسه بالموافقة، قائلًا:

- سأفعل يا صديقي.. أعدك أن أفعل.

كان يعتقد أنه يتحدث عن مكان ما، إلا أنه أدرك أن (ناتاليا) اسم حبيبته، حين تابع (سوفيتش) بوهن أشد:

- أخبرها بأنني أحبها، وادعها للإسلام، ستستجيب لك فهي رائعة.. و..و..و.. وجميلة..

أغمض عينيه وازدرد لعابه في صعوبة،، ثم قال بعد برهة:

- هاتفي.

ناوله (فراس) إياه من جيبه، فقد كان يحمله معه، لم يأخذه منه، فيده تعجز عن الإمساك بأي شيء مهما خف وزنه، أشار إليه بأن يفتحه، فجعل يملي عليه رقم فتحه، وحين استجاب له الهاتف، أبلغه بأنه فتحه، فقال له (سوفيتش) في بطءٍ شديد:

- منه ستعلم كل شيء عنها.. أرجوك لا تخذلني فهي أغلى ما عندي.

إذ ذاك صمت (سوفيتش)، اتسعت عينا (فراس) عن آخرهما، ظن أنه قد مات، فشرع ينادي باسمه بصوت عال، هرول إليه رجال المقاومة، كان معهم الطبيب، فما زال موجودًا، أبعدوه عنه، طفق الطبيب يفحصه، ثم تنهد في ارتياح قائلًا:

- لا يزال حيًا يا (فراس)، لكنه في غيبوبة.

وأكمل في قرارة نفسه:

- غيبوبة لا يعلم إلا الله وحده متى سيفيق منها.. هذا إن أفاق منها.

ثم أشار لهم الطبيب بأن يذهبوا ويتركوه وحده، أطاعوه وخرجوا جميعًا، وفي أحد الأركان جلس (فراس) يتفحص هاتف (سوفيتش) كما أخبره هذا الأخير، وجد العديد من الصور له مع فتاة جميلة ذات أنف منمنم وفم دقيق لها شعر أصفر ذهبي اللون، وعيون زرقاء شديدة الزرقة، ملامحها بريئة تستريح إليها النفس لمجرد رؤيتها، أدرك (فراس) أنها (ناتاليا)، تبسم وهو يقول محدثًا صورتها في مرارة:

- (سوفيتش) هذا أعظم شخص على وجه الأرض يا (ناتاليا)، بإذن الله سيعود إليك، لست أعلم مدى علاقتكما ببعض، لكن بإذن الله يعود إليك سالمًا، ومن الواضح أنك أيضًا إنسانة رائعة كما أخبرني عنك، فمن يملك قلبًا كقلب (سوفيتش) لن يحب إلا ملاكًا.. أتعلمين أنه كان يمكنه العودة إلى بلاده، لكنه أبى كي يكون معنا.. بقي كي يدافع عن الأبرياء، رغم حداثته في الإسلام، ورغم أن هناك الملايين من المسلمين لم تهتز لأحد منهم شعرة مما يصيبنا، ولا يكترثون لأوجاعنا، (سوفيتش) قرر أن يضحي بنفسه من أجلنا.

ظل يخاطب صورتها كثيرًا، ورجال المقاومة تتابعه في إشفاق، دون أن يتدخل أحدهم لإسكاته، فقد كانوا يعلمون مكانة (سوفيتش) عنده، وبعد أن انتهى من مشاهدة الصور، جعل يبحث عن أي شيء آخر قد يتوصل به إلى مبتغاه، فتح برنامج الواتساب، لاحظ أن هناك رسالة لم يتم قراءتها، فتحها وما كاد يفعل، حتى تهللت أساريره، ورقص قلبه فرحًا..

لقد كان هناك عدة صور لـ(ناتاليا)..

في البداية لم يتعرفها، لكن سرعان ما ميز ملامحها.. ليس لأن ملامحها قد تغيرت في هذه الصور، لكن لأن (ناتاليا) ترتدي الحجاب فيها..

(ناتاليا) التي كان يرى صورًا لها منذ قليل بملابس تظهر مفاتنها، الآن ترتدي الحجاب، وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا..

لقد اعتنقت (ناتاليا) الإسلام..

هناك أيضًا رسالة صوتية، فتحها لكنه لم يفهم منها إلا عبارات قالتها بعربية ضعيفة جدًا..

(عبارات طويلة بالروسية ثم فهم قولها إن شاء الله.. عدة عبارات أخرى ثم ميز اسم (عبد الملك).. عادت مرة أخرى للروسية ثم ختمت (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله))..

ما نطقته بالعربية فقط، هو كل ما استطاع فهمه من رسالتها، إذ ذاك نهض من جلسته، وهرول مرة أخرى نحو غرفة (سوفيتش) على الرغم من تحذير الطبيب لهم، لكنه ومن شدة فرحه، لم يستطع كبح جماح نفسه، فوقف إلى جانب الفراش الذي يرقد عليه، قائلًا في حزن رغم سعادته بما سمعه من (ناتاليا):

- أعلم أنك ستسمعني يا (سوفيتش) رغم غيابك عن الوعي، لكني أثق بهذا..أزف إليك بهذا الخبر يا صديقي..

صمت برهة بسبب غصة في حلقه، تابع بعدها بصوت مختنق أبح:

- (ناتاليا) أسلمت يا (سوفيتش)، لست أدري ما السبب وراء إسلامها، لكنني على يقين تام بأنك سبب هدايتها للإسلام ، لم أفهم شيئًا مما قالت سوى أنها نطقت الشهادتين، ولقد أرسلت لك صورها بالحجاب تشبه الملائكة فيها يا رجل، ورسالة صوتية سوف أجعلك تسمعها بنفسك، فأنت الوحيد الذي يمكنك فهمها.

قرَّب الهاتف من أذنه، وقام بتشغيل رسالتها، التي ما أن قام بتشغيلها حتى حدث أمر غريب..

لقد ابتسم (سوفيتش) وهو في غيبوبته..

لا أحد يعلم.أني وصله صوتها لكنه وصل..

وصل عبر قلبه وعقله وكيانه كله..

(كنت أقلق من إسلامك يا حبيبي كثيرًا، وفي تلك الفترة التي لم أكن أجيب على رسائلك فيها، كنت قد قررت الابتعاد عنك، لكنني بدأت أبحث عن الإسلام، قرأت عنه كثيرًا.. (ضحكت).. كنت أكثر ما أكرهه فيه أنه يتيح للرجل أكثر من زوجة، خشيت أن تتزوج من أخرى معي، وأنا أكره هذا، لكن صدقني حتى بعد إسلامي فلن أقبل هذا الأمر، لأنك إن فعلتها سأقتلك وأقتلها، فأنت ملكي أنا وحدي، ولن أقبل أن تشاركني فيك غيري.. حبيبي لولا إلحاحك ما كنت بحثت عن الإسلام، لكن أنا اليوم مسلمة بفضلك أنت.. لولا حبي لك ما شغلت بالي ولو لحظة بهذا الأمر.. كنت سأجعل هذا الأمر مفاجأة لك حين تعود لكنني ما طقت صبرًا على هذا، خاصة حين وصلتني رسالتك الأخيرة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرسل لك صوري بالحجاب، وأرسل لك رسالتي هذي.. تعرفت على بعض المسلمات، رحبوا بي بينهم، وعلموني كثيرًا في هذا الدين، أحببتهم وأحبوني، حدثتهم عنك كثيرًا هن يتقن لرؤيتك أيضًا، خاصة أني أخبرتهم أنك أنت صاحب الفضل في إسلامي، سعيدة جدًا بهذا الأمر وأدعو الله أن تعود إليَّ في أسرع وقت لنتزوج يا حبيبي إن شاء الله، فما عدت أطيق البعد عنك.. (تبكي).. أرجوك يا حبيبي عد إليَّ فقد أوحشتني كثيرًا، تعال نقضي ما بقي من عمرنا

سويًا، ونربي (عبد الملك) معًا.. أراك تسألني من هو (عبد الملك).. إنه ابننا القادم (بعربية ركيكة) إن شاء اللّه.. من اليوم لا تنادني بـ(ناتاليا).. من اليوم أنا أم (عبد الملك).. هكذا اختار لي صديقاتي المسلمات هذا الاسم وأنا أحببته..

حبيبي أنا في انتظارك فلا تطل غيبتك.. حبيبتك (أم عبد الملك).. (بعربية ركيكة).. أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدًا رسول اللّه.

انتهت الرسالة، ولا تزال ابتسامة (سوفيتش) على شفتيه هي..

كان (فراس) ينظر إليه في دهشة ولا ينطق بشطر كلمة، فقط يتابع ابتسامته في صمت، ودمعتان دافئتان تسيلان على خديه ببطء، كان على يقين بأن (سوفيتش) قد سمع كل كلمة قالتها (ناتاليا)، ويعلم أيضًا أنه سعيد بما سمع، أعاد على مسامعه الرسالة أكثر من مرة، ثم قام بتشغيل القرآن من على هاتفه، وضع الهاتف إلى جواره على الكومود وخرج، مغلقًا الباب من خلفه برفق، تاركًا (سوفيتش) وحده بالغرفة، وقد اتسعت ابتسامته أكثر، بعد أن قام (فراس) بتشغيل القرآن..

إنه الآن يرى ما لا نراه..

إنـه الآن يـردد بعربيـة سـليمة لا غبـار عليهـا (أشـهد أن لا إله إلا اللّه وأشـهد أن محمدًا رسـول اللّه) ..

رددها أكثر من مرة وفي يسر..

﴿يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ الْمُطْمَئِنَّـةُ * ارْجِـعِي إِلَىٰ رَبِّـكِ رَاضِيَـةً مَّرْضِيَّـةً * فَادْخُـلِي فِي عِبَـادِي * وَادْخُـلِي جَنَّـتِي﴾.

تلـك كانـت آخـر كلمـات سـمعها، ثـم فاضـت روحـه إلـى بارئها، تاركة وجهًا مشـرقًا، وجسـدًا صار نضرًا، وانتشـرت منـه رائحـة طيبـة في الغرفـة بأكملها..

وكأن (فراس) شعر بموته فعـاد ليلـج الغرفـة، يدنو منه وشـرع يهـزه برفـق، والدمـوع تنهمـر علـى خديـه في غـزارة، وهـو ينـاديـه بصـوتٍ يقطـر شـجنًـا:

- (سـوفيتش).. (سـوفيتش)..

ثم أغمض عينيه، بأنامله متمتمًا:

- أنا السـبب.. أنا السـبب.. إنا للّه وإنا إليه راجعون.

ومـن بـين دموعـه ابتسـم (فـراس) رُغـم مـا يعتريـه مـن ألم، فقـد كانـت الابتسـامة مشـرقة علـى وجه (سـوفيتش)..



(7)

عذاب

شردت (ماليكا) وهي تنظر إلى تلك المشاهد الرهيبة التي يعرضها التلفاز عن الغوطة بسوريا.. مشاهد تدمي القلوب ويشيب لهولها كل من له قلب وعقل، وتخيلت زوجها وهو يشاركهم في قتل الأبرياء..

منازل تهدمت عائلات هلكت بالكامل، أطفال يجرون في الشوارع يصرخون من هول ما أصابهم، يبحثون عن أشقائهم وأمهاتهم وآبائهم ، ومنهم من يقبل رأس أخيه الميت، يترجاه ألا يتركه..

لكن.أني يطيعه وقد رحل عن الدنيا..

تتساءل (ماليكا) عن ضمائر قد غابت، عن أمة غافلة، لا تكترث لجراح إخوانهم..

نظرت إلى زوجها الراقد أمامها على الفراش باستياء، وهي تهز رأسها في أسف، متمتمة:

- يا حسرة عليك يا (أحمد)، لست أدري أبكيك أم أبكي لحالي أني أصبحت يومًا زوجة لرجل مثلك؟ أبكيك أم أبكي هؤلاء الأبرياء الذين كنت تقتلهم بلا رحمة..

كانت والدته تجلس قبالتها في صالة البيت، سمعت من كلامها أشتاتًا لم تفهمها، فسألتها:

- أتقولين شيئًا يا (ماليكا)؟

هزت رأسها نفيًا، قائلة:

- لا يا أمي فقط أدعو الله أن يرحمه من عذابه.

هزت أمه رأسها في أسفٍ، مغمغمة:

- لا أعتقد هذا يا (ماليكا).. ما يحدث هو علامات لسوء الخاتمة.. لله الأمر من قبل ومن بعد..

لم تجبها (ماليكا) هذه المرة، فقط لزمت الصمت، وإن كانت في قرارة نفسها توافقها تمامًا، متباينة مشاعرها تعجز عن فهمها، فما تراه على شاشة التلفاز، تتيقن بأن زوجها شريكًا فيه، حملت ابنها الذي بدأ يستيقظ من نومه، فشرع يبكي جعلته في حجرها، وأخذت تربت عليه برفق، حتى عاد يغط في سبات عميق، أمالت رأسها على يدها، وهي تسترجع كل ذلك العذاب الذي تحملته من أجله والذي كانت بدايته منذ تلك اللحظة التي أيقظتها أمها فيها بعنف، وهي تهتف بها في حنق:

- استيقظي يا حيوانة.. سنذهب للكنيسة سويًا.

فتحت (ماليكا) عينًا واحدة، نظرت لها شذرًا دون أن تنطق بحرف، أزالت عنها أمها الغطاء، صارخة:

- هيا ولا تنظري إلي هكذا.

وغادرت الغرفة وهي تسب وتلعن فيها، فجلست على الفراش زافرة في ضيق، ثم قالت:

- يالصباحك الكئيب يا أمي.. لست أدري ما الذي تريدينه مني؟

ومن الخارج تعالى صراخ أمها:

- قلت لك هيا.

نهضت من على الفراش وهي تقول في حنق:

- حاضر.. حاضر.. أنا آتية.

ثم تحولت لهجتها إلى الهمس، مستطردة:

- لكن صدقيني لو ذهبنا إلى بابا الفاتيكان نفسه، فلا رجعة لي في قراري هذا، فأنا أحبه ولن أتخلى عنه ولو قتلتموني.

في تلك الأثناء سمعت صوت جرس الباب، لحظة ثم سمعت أمها ترحب بالقادم، قائلة في سعادة تشوبها الدهشة:

- القس (بطرس) بنفسه هنا؟ أهلًا بك.. تفضل.

ثم سمعت صوت الباب يغلق، وسمعت صوت الضيف يقول:

- معذرة لقدومي باكرًا هكذا، لكن اتصل بي أخي (سمعان)، وطلب مني الحضور إلى هنا للضرورة القصوى، وأكد أن أكون عندكم في وقت مبكر، أقلقني كثيرًا عليكم، فماذا هناك؟

أرسلت (ماليكا) بصرها إلى الخارج، مغمغمة:

- أترى أن والدي قد أخبره بأمري؟

ثم ابتسمت، مستطردة:

- حتى ولو أخبره فهذا أفضل من الذهاب إلى الكنيسة بالتأكيد.

القس (بطرس) هو أعز صديق لوالدها، يحبهم كثيرًا ويخاف عليهم، يثق فيه أبوها ثقة عمياء، ويعتبره واحدًا منهم، لذا لا يخفي عنه شيئًا، ودائمًا ما يلجأ إليه حين تشتد به الشدائد، وكثيرًا ما كان يجد عنده الحل لمعظم أزماته، لذا فقد كان بمثابة الأب لبنتيه (ماليكا) و(ليزا)، والأخ له ولزوجته.

جلس الرجل على أريكة في الردهة، وجلست أمها قبالته، وسمعتها تقول في توتر:

- بالفعل يا أبتِ نحن في محنة.. ابنتي ستضيع مني.

زفرت (ماليكا)، وقالت في تأفف:

- أنت غريبة يا أمي.. حتى لم تنتظري كي يلتقط الرجل أنفاسه، ثم تخبرينه بما تريدين.. لا ترغبين بإضاعة الوقت.

وحين انتهت من دخول الحمام، كانت أمها قد قصت على مسامعه حكاياتها سريعًا، استمع لها الرجل في اهتمام بالغ، ثم قال:

- الأمر خطير يا (مريم) ولابد من حل تلك الأزمة سريعًا كي لا تزداد تعقيدًا، ولا تذهبي بها إلى الكنيسة، فليبق الأمر سرًا حتى ننتهي منه، ولا تخبري أحدًا من أقاربكم، فلسنا بحاجة إلى تفاقم الأزمة التي قد تنتهي بكوارث لا تحمد عقباها في النهاية.

اتسعت عينا الأم عن آخرهما، وضعت يدها على فمها، كأنما تخشى التفوه بكلمة واحدة بعد ما قيل، في تلك اللحظة دخلت (ماليكا) الردهة على استحياء، رحبت به ثم جلست إلى جوار أمها، التي نظرت إليها من أعلى إلى أسفل في ازدراء شديد، ثم ابتعدت عنها، كأنما تخشى العدوى من مرض عضال، نظر لها القس (بولس) معاتبًا، ثم يمم نظره شطر (ماليكا)، قائلًا في تؤدة:

- حفظك الرب يا بنيتي.. كيف حالك؟

ابتسمت قائلة في هدوء:

- نشكر الرب يا أبت.. في خير حال.

بدا الرجل في حيرة من أمره، من أين يبدأ الحوار، حتى حسم أمره، وقال دون تردد:

- (ماليكا) أنت تعلمين جيدًا أنك بمثابة ابنتي، وتعرفين كم أحبكم لذا سأكون صريحًا معك، فأنا على علم بعلاقتك بهذا المسلم..

ونظر إلى أمها نظرة ذات مغزى، فتركتهما ولجت المطبخ لتعد له مشروبًا، وقال الرجل لابنتها:

- أصحيح ما قالته أمك لي ؟

هزت رأسها موافقة، قائلة بصوت بالكاد سمعه:

- نعم يا أبتِ هو صحيح.

فمال نحوها قائلًا:

- لكن أتعلمين خطورة هذا الأمر؟ أنت في مشكلة حقيقية يا بنيتي.. وأنت تعلمين أن الكنيسة ترفضه، فكيف تتصرفين هكذا؟

غمغمت:

- أنا لم أفعل خطيئة يا أبت، فأنا أحبه وهو يحبني، و......

قاطعها في هدوء:

- بل أنت خاطئة يا (ماليكا).. إنه رجل غير مسيحي، والزواج منه خطيئة بالفعل.. لا تجوز الشراكة بينكما..

هتفت:

- لماذا يا أبتِ؟ إنه يحبني أكثر مما أحبه.

قال في صرامة:

- كاذب هو يا (ماليكا).. إنه يخدعك صدقيني، حتى يأخذ منك ما يريد ثم يلقي بك في أول فرصة تسنح له.

دمعت عيناها وهي تقول:

- بل لن يفعل، وأنا أثق به تمام الثقة.

أشار إليها بسبابته، قائلًا في صرامة أشد:

- أرأيت يا (ماليكا)؟ ها هو ذا قد تمكن منك، بدليل أنك تثقين فيه لدرجة لا تقبلين في أمره أي جدال.. أنا على يقين بأنك فتاة مؤمنة، وأنت تعلمين ما يقوله الرسول (بولس) في هذا الشأن.. لا يجوز الشراكة بينكما في حياة واحدة.. لا تجوز الشراكة

بين عبادتين.. لن تكون هناك ألفة بينكما.. أحدكما سيغير الآخر، ولا أظنك قادرة على تغيير عقيدته صدقيني، هو سيفعل.. هل تعلمين لماذا ؟

نظرت له في تساؤل، فتابع:

-لأنك ضعيفة أمامه كما أرى.. أقسم لك لن يكون هناك خاسر إلا أنت ، وقتها لن يفيدك الندم، وستخسرين كل أهلك بلا استثناء، يجب أن تحكمي سيد جسدك في أمرك هذا.. (وأشار إلى رأسه بسبابته) عقلك وليس قلبك.. فالحكم على الأمور بالعاطفة فقط سيضيعك.. استقيمي يا (ماليكا) قبل فوات الأوان، ولا تغضبي منك الرب.. أتمنى أن تكوني قد اقتنعتِ بما أقول.. فما أقول لك إلا الحق.. ، إن الزواج في المسيحية سر مقدس يتم داخل الكنيسة بطقوس و صلوات معينة، و بحلول الروح القدس على كلا العروسين، فهل عندما يتزوج المسلم من المسيحية سوف يتم الزواج بهذا الشكل الكنسى السليم؟ بالطبع لا لن يحدث هذا، لذا أنت في مشكلة كبرى، لا تستهيني بها.

هتفت في حزن:

- أية مشكلة يا أبت في زواجي ممن أحب؟

أجفل من قولها، لكنه تمالك نفسه، قائلًا في هدوء:

- يا بنيتي أنتِ ما زلت صغيرة، وما انفك عقلك لا يقدر على استيعاب ما أنت مقبلة عليه.. أنت تخلقين معركة معادية في داخلك، وأهلك لن يرضيهم ما تفعلينه، ولن يباركه أحدٌ فيهم، ولو ألقيت بنفسك في النار- بل ولن يباركه الرب - وقد تتسببين في فتنة طائفية تراق على إثرها الدماء، فلا تكوني حمقاء، وتدبري الأمر جيدًا، فلو سالت قطرة دم واحدة بسببك، فلن يسامحك أحد فينا..

تمتمت بكلمات غير مفهومة، لكن تعابير وجهها تبدي تذمرًا حقيقيًا، أدرك القس (بطرس) أن قلبها معلق به، ولن يستطيع إقناعها بأي كلام، فأطرق برأسه مفكرًا، في نفس اللحظة التي ثارت فيها ثائرة أمها، والتي كانت تسترق السمع إلى كل كلمة دارت بينهما، فخرجت من المطبخ، وقد رسم الغضب خطوطه في قسمات وجهها، فأسرعت نحو ابنتها، وهي تصرخ في ثورة:

- أنا أعلم أنك ستفضحيننا يا قذرة.

نهض الرجل من مكانه، حال بينهما على الفور، (ماليكا) تنظر إلى أمها ذاهلة مما تفعله، وتتعجب من هجومها عليها بهذا الشكل..

طوال عمرها وهي تعاملها بمنتهى اللين والحب، ثم تحولت وبدون مقدمات إلى تلك القسوة غير المعهودة، خاصة بعد أن علمت بعلاقتها بـ(أحمد)، لكنها تثق تمام الثقة أنها ما تفعل هذا كله إلا خوفًا عليها، وحبًا بها، وصارت على يقين تام بهذا حين انهارت أمها بغتة، وأجهشت ببكاء حار مرير، وخرت على الأرض، قائلة في قهر وحسرة:

- ستقتلين أمك حسرة عليك يا (ماليكا)..

هرولت إليها، ضمت رأسها إلى صدرها في قوة، وقالت وهي تبكي في حرارة:

- سامحيني يا أمي.. آسفة لن أقابله مرة أخرى، سوف أبتعد عنه.

وازداد انتحاب أمها حيال هذا، واحتضنت ابنتها بشدة، تراجع القس (بطرس) خطوتين إلى الوراء، وهو ينظر إليهما في إشفاق تام، متمتمًا:

- فليحفظكم الرب من كل سوء.. آمين.

ثم رسم شارة الصليب، متابعًا ما يحدث في صمت تام، وهو يقول في قرارة نفسه:

- دموع أمها غسلت قلبها، وفعلت معها ما عجزت أن أفعله.

وابتسم على الرغم منه، سعيدة أم (ماليكا) بقرار ابنتها، أما الأخيرة ففي قلبها نار مستعرة، وقلب يغلي من فرط الألم، ولسان حالها يسأل:

- أحقًا ستفين بعهدك مع أمك يا (ماليكا)؟ هل سيطاوعك قلبك في البعد عن (أحمد)؟ فليسامحني الرب على ما أنتوي فعله.

كانت تعلم أنها لن تفعل ليس لشيء سوى..

سوى أنها لن تستطيع أن تفعل..



(ترغب بالزواج من مسيحية! أجننت؟)

قالت أم (أحمد) في ذهول وخوف، ضاربة صدرها بيدها، فهز رأسه بالموافقة، قائلًا في صرامة:

- أجل يا أمي سأتزوج من (ماليكا) المسيحية.

نهضت أمه من جلستها، وشرعت تنادي على شقيقه (علي) في غضب:

- يا (علي).. يا (علي).. تعال هنا واحضرنا.. تعالى واسمع ما يقوله أخوك.. لقد جُن جنونه ولا ريب..

خرج (علي) في تلك اللحظة من الحمام، وهو يجفف وجهه بالمنشفة، هاتفًا في توتر:

- اخفضي صوتك يا أمي.. ماذا هناك ؟

صكت وجهها صارخة:

- أخوك يا (علي) ،، أخوك سوف يصيبني بالشلل.. لن يرتاح إلا إذا أسقطني جثة هامدة.

جعل ينقل بصره بينهما في تساؤل ودهشة، فواصلت أمه:

- ابن المجنونة يرغب بالزواج من فتاة مسيحية.. ضاقت به الأرض بكل المسلمات، وقرر أن يتزوج من مسيحية.. هذا ما كان ينقصنا.

نظر إلى شقيقه في ذهول متسائلًا:

- (ماليكا) ؟ أهي مسيحية ؟

لوح (أحمد) بيده، قائلًا في صرامة:

- أجل يا (علي).. (ماليكا) التي حدثتك عنها مسيحية .

صاح به في غضب:

- مسيحية يا (أحمد)؟.. ءأنت في وعيك وعلى دراية بما تقول؟

نهض (أحمد) بحركة حادة، ولوح بيده مرة أخرى، قائلًا في انفعال:

- أنا في كامل وعيي، أم تراني سكرانًا؟ سوف أتزوج منها ولو انطبقت السماء على الأرض، هلا تستوعب ما أقوله؟ لن أتخلى عنها.

بكت أمه وهي تقول:

- حرام عليك يا بني ارحم أمك، فلن أتحمل أن تضيع مني بسببها.. أنت تعلم أني ليس لي سواكما منذ وفاة والدك، فلا تحرق قلبي عليك، فعواقب هذا الأمر وخيمة.. صدقني لو أبلغوا أمن الدولة فسوف

يأخذوننا جميعًا، ولن يرحمونا.. وأنت تعلم تمامًا ما هي أمن الدولة.

ضحك متهكمًا وقال:

- أمن الدولة؟ وما علاقة أمن الدولة بزواجي يا أمي؟ هل سيتركون الإرهاب المزعزم، وأعداء النظام، ويشغلون أنفسهم بالحالة الاجتماعية لـ(أحمد) ابن (دولت)؟ بالله عليك يا أمي أقلعي عن تلك الخرافات.

دفعه (علي) في صدره، قائلًا في حدة:

- احذر من أسلوبك في الحوار، ولا تنس أنك تتحدث مع أمك وأخيك الكبير.

حالت بينهما أمهما، وجعلت توبخهما على تلك الحماقة، على حين زفر (أحمد) في قوة، ود لو انفجر في وجهه، لكنه كبح جماح نفسه، ثم عاد ليجلس مرة أخرى مستغفرًا، وأشاح بوجهه عنهما، فأشار (علي) لأمه بالجلوس، جلسوا جميعًا، والأخير يقول في اهتمام:

- أمك تخاف عليك يا (أحمد)، وكل ما تقوله حقيقة، لو علم أهلها عن علاقتكما، وأنكما تنويان الزواج، وأبلغوا أمن الدولة فسوف نضيع جميعًا بسببك.

صاح في انفعال:

- أستتحدث مثلها أنت أيضًا؟ ما علاقة أمن الدولة....

قاطعه شقيقه في هدوء:

- (أحمد) اهدأ.. نحن نتشاور معًا ليس هناك داعٍ للصوت المرتفع والشجار، عليك أن تتمالك أعصابك، كي نصل إلى حل.

تنهد (أحمد) في عمق، مغمغمًا:

- حسنًا يا (علي).. سوف أتحدث بهدوء.. (ماليكا) إنسانة محترمة جدًا، ولقد تعلقت بها، ولن أستطيع التخلي عنها، وهي مثلي تمامًا، لقد أخبرتني أنها تستطيع أن تقنع أهلها بهذا الأمر، فلا تكونا أنتما العقبة في سبيل سعادتي، ثم إن ديني لا ينهاني عن الزواج منها، فقد قال الله عز وجل في سورة المائدة ﴿اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِبَاتُ وَطَعَامُ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ

﴿مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾، أي أنه لا حرج من زواجي من مسيحية.

قال (علي) متهكمًا:

- وهل تعتقد أنها ستستطيع إقناع أهلها بتلك السهولة بالزواج من شاب مسلم؟ أنت تحلم.

حافظ على هدوئه وهو يقول:

- أجل ستفعل يا (علي)، وأرجوك لا تتحدث معي بهذا الأسلوب كي أحافظ على هدوئي، فأنت تزوجت من (كريمة) رغم أن والدتك كانت ترفض زواجك منها، لأنك كنت تحبها..

صاحت أمه:

- اخفض صوتك لئلا تسمعك زوجة أخيك فتجرحها.

وقال (علي) في حنق:

- أجل أنا فعلت يا (أحمد).. تزوجت ممن أحببت رغم رفض أمي، لكن ها هي ذي تعيش معنا، وترعاك أنت وأمك.

نظـرت لـه أمـه معاتبـة، لكنـه لم يكـترث لنظراتهـا، متابعًـا:

-لكن في النهاية (كريمة) زوجتي مسلمة.

هتف (أحمد) في انفعال:

- (ماليكا) أيضًا ستصبح مسلمة.

عقدت والدته حاجبيها، قائلة في سخرية:

-والله؟ أتعتقـد أنـك ستسـتطيع إقناعهـا بـأن تدخـل الإسـلام.. أتظن نفسـك نبيًا.. والله إني لأخشى عليك أنـت أن تصبـح مسـيحيًا، وأجدك يومًـا مـا بـدلًا من أن تبسمل أثناء الطعام، تتلو صلاة المائدة مثلهم، وترسم شـارة الصليب على صدرك.

ثـارت ثائـرة (أحمـد)، فنهض مـن فـوره، واتجـه نحـو بـاب الشـقة، فتحـه وهـم بالمغـادرة، لكنـه توقـف ثـم التفـت إليهمـا، وقـال في غضـب:

- (ماليـكا) سـتصبح زوجتـي رغمًـا عـن أنـف أي إنسـان في الوجـود، ورغمًـا عـن أنـف أمـن الدولـة التـي ترعبكمـا هكـذا، وصدقوني يومًـا مـا سـتصبح مسلمة، وستذكرون مـا أقـول.

ثم صفق الباب من خلفه في عنف، نادته أمه، لكنه لم يسمع نداءها، وانكمشت أمه في مكانها، فتركت لدموعها العنان، حتى خيل لـ(علي) أنها سوف تنهار أنقاضًا، جعل يربت على ظهرها في إشفاق، على الرغم من أن ما يعتريه هو أيضًا يرثى له..

(أحمد) شقيقه الأصغر، صحيح أنه كان مطيعًا له، لكنه عنيد للغاية، وسيفعل ما يريده، حتى وإن كان سببًا في هلاكه..

وفي الجامعة كان (أحمد) يبحث عن (ماليكا) كالمجنون، لم يعثر لها على أثر، سأل عنها صاحبتها، لكنها أخبرته بأنها كانت في طريقها إليه لتسأل عنها، حاول الاتصال بها مرات عديدة، لكنه وجد هاتفها مغلقًا، شعر بالقلق عليها، وجعل يتساءل في ارتباك شديد..

تُرى ما الذي أصابها؟ أعلم أهلها بعلاقتنا؟ أحقًا ستستطيع إقناعهم بزواجنا، أم ستفعل ما تقول أمي، ويبلغون أمن الدولة عني؟

اختلجت حدقتا عينيه، وانتابته رعشة حين جال بخاطره هذه الفكرة، وقال لنفسه بصوت خفيض:

- أه لـو صـدق حدس أمـي وفعلوهـا.. سـوف ينفخـوني، ويجعلـون مـن فخـذاي مزمـارًا، ومـن مؤخـرة عنقـي طبلـة، يتراقصـون علـى أنغامهمـا.

ونفض عـن ذهنـه تلـك الفكـرة، لم يسـتطع أن يحضـر محاضـرة واحدة طوال اليـوم، بمـا يجيش بـه صـدره، فقـد كان على غير حاله المألوف، عقله غير حاضر، ذهنه مشوش بشـدة، فـلا قيمـة مـن حضـوره أو عدمـه، حـاول أصدقـاؤه إقناعـه كثيرًا بالحضـور، لكنـه كان يرفض بشـدة، ومن ألح عليه كان يزجره، ثم وفي آخر اليوم ذهب حيث كان يجلس معهـا، طلـب مشـروبًا، فخيـل إليـه أنهـا تجلس قبالتـه، وجـد نفسـه يمـد يديـه فيمسـك بيديها، ويقـول لهـا:

- أوحشـتني يـا (ماليـكا).. كنـت أبحـث عنـك طـوال اليـوم فلـم أجـدك.

في تلـك الأثنـاء كانـت هـي تجلس في غرفتهـا وحيـدة، تغلق بابها عليها، ولقد خيل إليها أنه يجلس معها في الغرفة ويحدثهـا، وكأنهمـا يسـمعان بعضهمـا، وكلٌ منهمـا في مكانه وعالمـه الخـاص، فردت عليه:

سـامحني يـا حبيبـي لقـد منعـوني مـن الذهـاب إلى الجامعـة اليـوم.

انعقد حاجباه، وسأل:

- هل علموا بشيء عن علاقتنا؟

قالت في انكسار:

- نعم علموا، ولذلك منعوني عنك، رغم أنني وعدت أمي بأني لن أكلمك ثانية، لكنهم لا يثقون بي، لكن أعدك أن نلتقي قريبًا.

- وأنا أعدك أن أنتظرك كل يوم في هذا المكان حتى تأتين.. وأعدك ألا أكون لغيرك مهما حدث.

- أنا أيضًا يا حبيبي أعدك ألا يمسسني أحدٌ غيرك، ولو مزقوني إربًا.. أراك على خير يا عمري.. حفظك الرب ولا حرمني منك.

- أراك على خير يا أغلى ما عندي.. في رعاية الله.

وجذب يدها إليه، قربها من شفتيه كي يقبلها، لكنه فوجئ بها تسحبها من يده في إصرار، وقد تحول صوتها إلى صوت جاف خشن يقول:

- لا سمح الله يا بيه.. إنه واجبي.

كان النـادل وقـد أحضـر المشـروب الـذي طلبـه، وتلك اليد التـي كان سيقبلها كانت يده، شخصت عينـاه بيده الخشنة، وأفـاق مـن شـروده، فتركهـا في حـرج شـديد، شـكره بصـوت مـرق مـن بـين شـفتيه كما الهمس في الآذان، وما كاد النـادل ينصـرف، ظـل يتابعـه حتـى ابتعد عنـه، ثم انتابت (أحمد) نوبـة هسـتيرية من الضحك دمعت منها عينـاه..

(8)

نبوءة أمي

(ناتاليا).. لست (سوفيتش) أنا أحد أصدقائه، وأدعى (فراس) سوري الجنسية، لست أدري من أين أبدأ كلامي، لكن كل ما يمكنني قوله عن (سوفيتش) أنه من أعظم الناس الذين عرفتهم في حياتي، وصدقيني أنا أكتب تلك الكلمات إليكِ وأنا أبكي حزنًا وألمًا على ما حدث.. لم يكن ذنبي، هو أصر أن يبقى معنا في تلك المواجهة الأخيرة بيننا، وبين قوات النظام، ولقد كان ينتوي بعدها العودة إلى بلاده والزواج منك، لكن قدر الله وما شاء فعل.. أصيب (سوفيتش) إصابة خطيرة، لم نتمكن من إسعافه، فلقي مصرعه..

لم تتحمل (ناتاليا) أن تكون قد فقدت (سوفيتش) إلى الأبد.. حين جاءتها رسالته عبر الواتساب، فتحتها في لهفة، توقعت أنه هو.. توقعت أن يكون في طريقه إليها ليتزوجها، ويعوضها عن فراقهما، لكنها تلقت صدمة شلت كل أركانها، وأفقدتها تركيزها، فسقط فاقدة الوعي..

كانت بصحبة بعض صديقاتها في مجلس لتعلم القرآن، وحين فقدت الوعي أسرعن إليها يحاولن إفاقتها، والتقطت أقربهن صداقة منها هاتفها، وابتعدت عنهن، لترى ما الذي رأت من خلاله، كي تفقد الوعي، فقرأت ما سلف ذكره، ثم تابعت:

(لقد كان (سوفيتش) نعم الرجل، ونعم الأخ والصديق، أوصاني أن أتوصل إليك، وأن أخبرك بكل شيء عنه، وأن أقف إلى جوارك، وأنا أعدك بأن أكون تحت أمرك في أي شيء تريدينه، واطمئني عليه)..

عند هذه النقطة انعقد حاجباها في حيرة، متسائلة بالروسية:

- كيف تطمئن عليه وهو ميت يا رجل؟ أتهذو؟

ثم تابعت القراءة:

(واطمئنـي عليـه، فهـو في مـكان أفضـل منَّـا، فقـد كان وجهـه كالبـدر في ذروة جمالـه، عقـر سـماء صافيـة، ورائحة دمـاءه كأجمـل رائحـة شـممتها في حياتـي، علـى شـفتيه ابتسـامة مـا رأيت أجمـل منهـا، نحتسبه علـى اللّٰه شـهيدًا.. واطمئني فقد سمع رسالتك كلها، وصدقيني أقسم لك باللّٰه بأنـه كان يبتسـم وهـو في غيبوبتـه أثنـاء سـماعها.. (ناتاليا) علمـت أنـك قـد اعتنقـتِ الإسـلام، فأتمنـى أن تتمسكي بـه، إن لم يكـن إيمانًـا بـه فمَـن أجـل (سوفيتش)، فلقـد أوصاني عليـك كثيـرًا قبـل موتـه، وأكثـر مـا أسـعده في هـذه الدنيـا كان إسـلامك، الـذي أفـاق علـى إثـره مـن غيبوبتـه، فـلا تخذليـه فيـك بعـد موتـه وتأكدي أنـك علـى الحق المبين، وأنـا في انتظار ردك.. إنَّـا للّٰه وإنَّـا إليـه راجعـون)..

مـا أن انتهـت مـن رسـالته، حتـى سـقطت دمعتـان علـى الهاتـف في يدهـا، مسـحتهما ثـم مسـحت عينيهـا، جلسـت علـى الأرض إلـى جـوار (ناتاليـا)، أبعـدت الفتيـات عنهـا برفق، ثـم جعلت رأسـها على صدرها، في نفس اللحظة التي جلبت إحداهـن زجاجـة عطـر، جعلت بعضًـا مـن رذاذهـا في وجههـا، وبـدأت بالفعـل تفتـح عينيهـا في بطء شـديد، أخذت تجـول ببصرهـا في الوجـوه الجزعـة مـن أجلهـا، والتـي بـدأت تبـش حامـدات اللّٰه أن أفاقـت مـن غيبوبتهـا، ومـا لبثـت أن

غـام وجههـا وطفـرت الدموع من عينيهـا، وهـي تقـول بصـوت مبـحـوح:

- لقـد مـات (سـوفيتش).. لقـد مـات حبيبي.أقسـم لـي بأنه سيعود ليتزوجني ونقضي سويًا ما بقي من عمرنا، لكنـه لم يفِ بوعـده معـي ومـات.. أخـبروه أن (ناتاليا) تنتظـره.. أخـبروه أن (ناتاليـا) تحبـه.. قولـوا لـه أن أم (عبد الملك) ستظل على العهد ولن تتزوج من غيره..

ويممت محياها شطر صاحبتها، قائلة:

- أرجـوكِ يـا (ميليسـا) قـولي لـه ألا يمـوت.. قـولي لـه أني بانتظاره..ألست صاحبتك وحبيبتك؟ باللّه عليك أخبريـه أن يبقـى حيًا مـن أجلـي يا (ميليسـا)..

وافقتهـا بإيمـاءة مـن رأسـها دونمـا تعقيـب، فدمعـت العيـون مـن كلماتهـا، وسـرت بينهـن الهمهمـات، جعلـن يجمجمـن حزنًـا، علـى حيـن ضمتهـا صاحبتهـا علـى صدرهـا بقـوة تحـاول تهدئتهـا، لكنهـا كانـت تنتحـب، وجسـدها كلـه ينتفض، زادت صاحبتها من ضمها إليها، مطلقة هي أيضًا لدموعهـا العنـان..

أكثر من عشرة دقائق، والمشهد على حاله، حتى فقدت (ناتاليا) الوعي مرة أخرى، إذ ذاك صرخت صاحبتها ملتاعة:

- الإسعاااااف.

أفاقت (ماليكا) من شرودها حين قالت لها حماتها في إشفاق:

- (مؤمن) غلبه النعاس، فادخلي غرفتي لتستريحي فيها قليلًا.

هزت رأسها نافية:

- لن يأتيني النوم يا أمي، أنا أعرف نفسي.

- كما تحبين، أنت في بيتك متى شئت افعلي.

اعتدلت (ماليكا) في جلستها وتساءلت:

- ألم يأت أحد من أقاربكم لزيارته؟

أجابت نافية في حزن:

- ولن يأتي أحد يا (ماليكا)، لم نخبر أحدًا بعودته، وكم أشعر بالخزي مما فعله، ولو أن أحدًا غيره فعل ما فعله هو، فلن أذهب لزيارته ولا حتى للعزاء فيه حين موته.

تألمت من كلامها عنه، حتى أمه نفسها كان يدميها ما تقول، لكنها وبكل أسف الحقيقة، في تلك اللحظة انطلقت صرخة من الغرفة، لم تشعرا إلا وهما تنتفضان من مكانهما نحو (أحمد) الذي أطلق تلك الصرخة، والتي انتفض على إثرها (مؤمن) الصغير صارخًا بدوره، كذلك هرول (علي) وزوجته (كريمة) من الداخل، فأشارت والدة (أحمد) إلى الأخيرة، بأن تأخذ الطفل، وتعود به إلى الداخل..

ووقف ثلاثتهم أمامه عاجزين..

ما الذي يستطيعون عمله حياله؟

كانوا ينظرون إليه في قلق وحيرة مما يفعل..

كانت رأسه تتقلب يمينًا ويسارًا كأنما هو في كابوس يحاول بجهدٍ جهيد أن يستيقظ منه، وهو لا يزال يصرخ:

- النار.. النار تحرقني.. أطفئوا النار.. آآآآآآه.. آآآآآآآه

انحنوا نحوه، وأمه تهزه في قوة، تحاول إخراجه من حالته تلك في هلع، (ماليكا) تدلك صدره وهي تتلو بعضًا من آيات القرآن في سرها، و(علي) يقف مشدوهًا لا يعلم ما الذي يمكن أن يفعله في موقف كهذا، وجميعهم يبكي على حاله في حسرة، ويدعون الله أن يريحه من هذا العذاب ويتوفاه..

باءت كل محاولات تهدئته بالفشل، صراخه يزداد، وكلما زاد صراخه، كلما علا صوت (ماليكا) في تلاوة القرآن، كان صراخه يتناسب طرديًا مع صوت زوجته، فكلما علا صوتها، كلما علا صراخه، حتى صرخ بها بغتة في ضراعة:

- اصمتي يا (ماليكا). اصمتي.

وصعقت فصمتت..

يا إلهي!

أي لعنة تلك حلت عليك يا (أحمد)؟

ما الذي فعلته في دنياك حتى تكون نهايتك بهذا الشكل؟

رحماك يا رب.. رحماك..

هكذا كانت تقول (ماليكا) لنفسها، وما كادت تصمت، حتى بدأ هو يهدأ تدريجيًا، ظلوا يحدقون به ذاهلين، يتساءلون عما يعتريه، لكنه سؤال ظل معلقًا في أذهانهم بلا جواب، انفضوا من حوله، جلسوا في صالة البيت واجمين، لم ينبس أحدهم بحرف، انقبضت قلوبهم مما جرى..

يعلمون علم اليقين أنه يتعذب بما كسبت يداه، لكن ما بأيديهم حيلة..

لا يملكون له إلا الدعاء..

وعلى فراشه عاد (أحمد) يحرك رأسه مرة أخرى، لكن هذه المرة بلا صوت..

فقط أنين مكتوم لا يصل إليهم..

ولجت (كريمة) حاملة الرضيع على منكبها، تربت على ظهره برفق، تناولته منها (ماليكا)، والأولى تتساءل في توتر:

- ماذا حدث له؟ لمَ كان يصرخ هكذا؟

نظـر إليهـا ثلاثتهـم، ولم يحـر أحدهـم جوابًـا، جـواب سؤالها كان عبارة عن تساؤل أطل من عيونهم، فعاد صمت ثقيـل يخيـم عليهـم، قطعتـه (ماليكا) بأن استأذنتهم:

- اعذروني سألج غرفة أمي لأستريح قليلًا.

قلت الأم:

- تفضلي يا حبيبتي.

دخلـت الغرفـة، أغلقـت البـاب مـن خلفهـا، وضعـت رضيعها على الفراش، ثم جلست على طرفه، جعلت تحوقل وتستغفر الله، ثـم تنهـدت في مـرارة، متمتمـة:

- ليتـك مـت يـا (أحمـد) ولم أرك بمثـل هـذه الحالـة.. ليتـك مت.

وجالت بفكرها:

هـل مـن المعقـول أن تكـون أنـت هـذا الشـخص، الـذي كنت أعرفه قبل زواجي منك؟ هل أنت ذلك الإنسان الذي اعتنقـت الإسـلام بسـببه؟ مسـتحيل.. أنـت شـخص آخـر غـيره..

ورغم كل شيء ابتسمت..

ابتسمت حين تذكرت لهفته البالغة عليها، حين كان يحدثها عبر الفيس بوك من خلال صفحته الزائفة (ريهام الشافعي)، وخيل إليها بأنه سيموت ويراها، وأقسم لها بأنه لو رآها ولو كانت بين زميلاتها في الكلية، أو حتى لو كانت في قلب المحاضرة، لسوف يأخذها في حضنه، حتى وإن فصلوه من الكلية، وزادت ابتسامتها أكثر حين قص لها موقفه مع النادل، الذي كان سيقبل يده، والتي ما إن قصه عليها حتى انفجرت ضاحكة، فلم تتمالك نفسها، شعرت بصوت خافت أمام باب الغرفة، وسمعت أمها تقول هامسة:

- أختك أصابها الجنون يا (ليزا).. إنها تضحك وحدها في الغرفة.

لكنها لم تتمالك نفسها هذه المرة أيضًا، ما زادها همس أمها مع شقيقتها إلا جنونًا، حبها له، وحديثه معها أنساها نفسها، بل أنساها كل ذرة ألم في حياتها، توقعت أن تدخل إحداهما الغرفة عليها لمعرفة سر ضحكاتها، لكنهما لم تفعلا، فواصلت مراسلته على الفيس بوك وهي تقول كل كلمة تكتبها هامسة:

- إذن فأنت تقابل الرفض في بيتك أيضًا.. والعمل يا (أحمد)؟

كان يجلس في نفس المكان الذي كانا يجلسان فيه، فرد عليها، وقد كان يحذو حذوها إبان الكتابة:

- لا تبالِ بمن عندي يا حبيبتي، أنا أستطيع إقناعهم بأن الشمس باردة، حتى وإن لم أقدر، فأنا صاحب القرار في النهاية وليس هم.. أنا الذي سيتزوجك وليست أمي.. لكن اطمئني، إن شاء الله بعد الزواج ستحبك وتحبينها، إنها طيبة وليست كباقي الحموات، من شدة حبها لك ستقوم بتقليع أظافرك، وإطفاء السجائر في جسدك.. ألم أقل لك؟ طيبة.

ابتسمت لدعابته:

- ونعم الأم يا (أحمد).. سأدعو الرب لها بأن تصبح شريرة، سوف تكون أحن عليَّ من طيبتها تلك التي تتحدث عنها.. أمي أيضًا تحبك منذ اللحظة التي سمعت عنك فيها.. لو رأتك لباعتك لآكلي لحوم البشر عبر الديب ويب.. ألم أقل لك؟ تحبك.

وتحولت الصيغة للجدية، وهو يكرر ما يكتبه بلسانه:

- (ماليكا) أنا لن أستطيع العيش بدونك، لذا فأنا أعدك أني لن أتخلى عنك ولو....

وضع نقطًا بعد لو، فأرسلت له علامة استفهام، فكتب:

- ولو هربنا منهم.. وأنا في غاية الجدية فيما أقول.

تمعر وجهها، وعجزت عن الكتابة، فلم تعرف ما الذي يجب أن ترد عليه به في مثل هذا الموقف، فأرسل لها علامة استفهام، فكتبت والحيرة تتنازعها:

- لست أدري ماذا أقول لك، لكن تأكد أنه ما لدي أحب إلى قلبي في الدنيا كلها مثلك أنت يا (أحمد) ولا حتى أبواي وأختي.

تنهد في ارتياح شديد، ثم رجع بظهره إلى الخلف، لم يعقب على كلامها، كذلك أسندت هي رأسها على ظهر سريرها، موصدة عينيها على حيرة لا حدود لها، متمتمة:

- وما آخر ما نفعله يا حبيبي.. أرجوك يا يسوع كن بجانبي.

ذهبت بعد أيام إلى الجامعة، لكنها لم تكن تقابله، فقط يراها وتراه، يتبادلان نظرات الحب من بعيد، فقد كانا يعلمان أنه هناك من يراقبهما، كان التواصل بينهما عبر حسابه الزائف، حتى تركت ذات مرة اللاب توب خاصتها في المنزل، ونسيته مفتوحًا، وصفحتها في وضع

الدخول على حسابها، ورأته أمها فتحت صفحتها، ورأت المحادثات بينهما، فكانت الكارثة، ما أن عادت من الكلية حتى لاقت أشد أنواع العقاب من أمها وأبيها هذه المرة، والذي ما عاد في صفها أبدًا، بعد أن قامت والدتها بزرع جام غضبه حيالها، وقررا حبسها تمامًا في البيت، حتى ولو فصلوها نهائيًا من الجامعة، إلى أن حسمت (ماليكا) أمرها وقررت الهرب مع (أحمد)..

حسمت أمرها في ليلة ليلاء بلا قمر، ما أن غفا أبواها وأختها حتى تسللت خلسة من البيت، بعد أن جمعت ما تيسر لها من كتبها وملابسها، فكان (أحمد) في انتظارها، وبمساعدة أحد أصدقائه، استطاع أن يجد لهما سكنًا مؤقتًا حتى يتم عقد قرانهما، في نفس اللحظة التي أطلقت فيها أمها صرخة عالية، وصكت وجهها حين لم تجد ابنتها في المنزل، انتفضت (ليزا) من نومها مذعورة كذلك زوجها، والأم تهتف في لوعة:

- البنت هربت.. خطفها المسلم.

ثم قامت الدنيا ولم تقعد..

على الفور قاموا بإبلاغ أمن الدولة، بأن شابًا مسلمًا اختطف ابنتهم، وقام البابا (بطرس) بتحذيرهم

من احتمالات وقوع فتنة طائفية، إن لم ينتهِ الأمر بعودة الفتاة، لكن أمها لم تسكت، إذ أبلغت كل أقاربها بالواقعة، مع إضافة بعض المساعدات على الإشعال، فأبلغتهم أنه قد اختطفها تحت تهديد السلاح، فثارت ثائرتهم، حيث بدأوا يجتمعون ودارت معارك طاحنة في تلك المنطقة راح ضحيتها الكثير من الضحايا، من الرجال والنساء والأطفال، وحُرِقت بيوت وخُرِبت أخرى، وتم الاعتداء على المساجد وعلى الكنائس، إلى أن تدخلت القوات المسلحة والشرطة في الأمر، واستطاعوا كبح جماح تلك الفتنة، لكن للأسف بعد أن أريقت دماء عشرات الضحايا، وقد كادت تلك الفتنة لتطال مصر كلها، لولا تدخل العقلاء من الطرفين، تم القبض على أم (أحمد) وشقيقه (علي)، وتم القبض على أصحابه، حتى وشي به صاحبه الذي دبر له الشقة، وبالفعل تم محاصرة المنطقة بأكملها، حتى تم القبض عليه، وعلى (ماليكا)، ساموا (أحمد) سوء العذاب حتى أشفق عليه أحد جلادوه، كان يدعوا الله في محبسه، بأن يرحمه ويرفع عنه الظلم، وإما يقضي عليه..

وبلغت به القذارة أن تجرأ على الله بالسب أكثر من مرة، وبدأ يقنط من رحمة ربه، فكان يتحدث بأبشع الألفاظ عن الذات الإلهية، ويقول في تبجح:

- لو أنك موجود حقًا، فها أنا أتجرأ عليك، فأرني ما أنت فاعل.

ظل يصرخ..

وينطق كفرًا..

وظلوا يعذبونه، ويعتدون عليه بكل السبل، حتى فقد الوعي أكثر من مرة..

(ماليكا) كانت تحت ضغط نفسي رهيب، لكنها تماسكت، وأعلنت لأحد الضباط أنها أسلمت، ونطقت الشهادتين أمامه، هي نفسها لا تعلم سبب إسلامها، ربما حبًا في (أحمد)، أو إشفاقًا عليه، فقد كان ما يصيبه من عذاب يصل إليها..

ربما أسلمت كي تأمن من بطش الضباط فهم مسلمون..

لا تعلم السبب حقًا لكنها وفي كل الأحوال أعلنت إسلامها..

كما أبلغتهم أنها لن تتخلى عن (أحمد)، وأنها تريده هو ولا تريد العودة لأهلها..

وبـدأت المناقشـات والمناوشـات بـين جميـع الأطـراف، والتـي انتهـت بـأن حسـم الموقـف بـأن تبقـى (ماليـكا) مـع (أحمـد) حقنًـا للدمـاء، لم يكـن أهلهـا يرتضـون هـذا الحـل، لكنهـم مكرهـون، وفي نهايـة المناوشـات صـاح القـس (بطرسـ):

- هـذا ليس عـدلًا وأنـا لـن أصمـت عليـه.. سـوف أُصَّعِـد الموضـوع.....

قاطعـه أحـد ضبـاط الجيشـ في صرامـة وكان برتبـة عميـد:

- أظن أن الأمـر قـد حُسـم يا أبتِ، فـلا داع لإراقة المزيد مـن الدمـاء، ونحـن لـن نسـمح بهـذا مرةً أخـرى، ثم إن الفتـاة لـن ترجـع عما في رأسـها، وقد أعلنت إسـلامها، نفـت أن الشـاب قـد اختطفهـا، وأنهـا ذهبت معه بكامل إرادتها ورغبتهـا..

هنــا امتقعـت الوجـوه، وتدلـت الألسـنة خـارج الأفـواه، والضابـط يتابـع، وهـو يجـول ببصـره بـين الوجـوه المكفهـرة:

- أعلنتـه دون أي ضغـط.. فعلنـا معهـا الكثـير كـي ترجـع، لكنهـا أقسـمت ألا تعـود عن مـا تنـوي فعله، ولو انطبقت

السماء على الأرض، لذا ومن أجل مصلحة الوطن يجب أن يكون هناك تنازل من لدن أطراف النزاع، ويجب أن تضعوا في الاعتبار ما قد كان، ولن يكون هناك أي تهاون في اتخاذ أي إجراءات..

وازدادت لهجته صرامة:

- مهما كانت قاسية من أجل المصلحة العليا للبلاد..

كانت لهجته شديدة الصرامة، لذا فقد لانت الملامح (مجبر أخاك لا بطل) إلا القس (بطرس) الذي هتف في غضب:

- مستحيل أن نقبل بهذه المهزلة.. (ماليكا) سترجع إلينا، و....

قاطعه الضابط في حزم:

- بل لن تعود، ولقد قابلتها بنفسي، وأنت أيضًا فعلت، وأيقنت بأنها أسلمت وبأنه لن ترجع إليكم مهما حدث.

وأردف في حزم أشد، وهو يجول ببصره في الحضور، ضاغطًا حروف كلماته:

- مهما حدث.

صاح القس في غضب:

- هذا ظلم.. أنت بلا شك خلايا إخو.....

وبتر عبارته حين ضغط أحد الحضور على يده بأن يصمت، على حين نظر له ضابط الجيش نظرة ذات مغزى، ثم قال في صرامة:

- بعد ساعات قليلة سنكون على الهواء مباشرة لإجراء التصالح، وسنلقي بيانًا بانتهاء الأزمة، وتذكروا بأن هذا من أجل أمن وسلامة الوطن.. ومن أجل سلامتكم أيضًا.

وساد صمت مطبق ثقيل على جميع الأطراف، دارت مشادات كثيرة بعد هذا، لكن الأمر كان أكبر من الجميع، لذا فقد خضعوا جميعًا للصلح، وبعد عدة ساعات وعلى الهواء مباشرة، وعلى أغلب القنوات، تم إعلان المصالحة، ورُغم ما يعتريهم من غضب واحتقان، تصافحوا وتعانقوا، وتم الإفراج عن (أحمد) و(ماليكا)، انتقلت للعيش مع أهله حتى تم تحديد يوم عرسهما، وقد كان يومًا لا ينسي، في عمرهما، رغم ما كان ينتابهم من خوف وهلع من حدوث أي مصائب أخرى، ومر حفل الزواج على خير،

عـزف أهـل (ماليكا) عن حضور زفافها، وانفض الحضور، وبقـي العريس والعروس وحدهما، ولجـا الشـقة التـي كانت في بيت عائلي صغير، يتكون من ثلاثة طوابق، طابق أرضي كان يقطنـه (أحمد) وأمـه، في إحدى غرفه كانـوا يضعـون مخـزون البيـت وردهـة لاسـتقبال الضيـوف، والطـابق الثاني يعيش فيـه شـقيقه (علي) وزوجته وابنيـه، والطابق الثالث، كان يسكنه شقيقه الثالث وزوجته، ولقد راحا ضحية حادث مروع، أثناء ذهابهما لزيارة أهل زوجته، وما كادا يدخلان الشـقة حتـى هتف بها :

- انتظري.

وجعـل يرمقهـا بنظـرات تقطـر حبًـا بفسـتانها الأبيض، الـذي بـدت فيـه كالملائكة، توجسـت خيفة من هتافه، وقالت في حذر:

- ماذا هناك؟

ثـم جعلـت تجـول بعينيهـا في أديم الصالـة، كان الطـلاء جديـدًا، والأثـاث فخـم ، لم يكـن يشـغل بالهـا كل هـذا، فقـد كانـت تبحـث بعينيهـا عمـا جعله يسـتوقفها هـاتفًا، فزوت ما بـين حاجبيهـا الرفيعين، متسـائلة:

- أرعبتني يا (أحمد) ماذا هناك؟

غمز لها بعينه:

- أسوف تذهبين إلى غرفة النوم سيرًا ؟

ازداد حاجبيها انعقادًا، وقالت في استغراب:

- وكيف سأذهب إليها؟ عبر البريد؟

انقض عليها ضاحكًا:

- بل سأحملك يا ملاكي.

حملها مغلقًا باب الشقة بقدمه، ضحكت هي في خجل، وشرعت تضربه برفق ودلال، ثم دفنت رأسها في صدره، وهو تقول بحب:

- أنت مجنون.. لكني أحبك.

دخل غرفة النوم ضغط مقبسًا على يمين الباب، فأضاء الغرفة، وجعل يدور بها فيها، وهي تتأملها في انبهار، كانت بيضاء كلها، حوائطها وأثاثها وحتى فراشها..

وضعها على الفراش برفق:

- ما رأيك يا حبيبتي في شقتنا المتواضعة؟

- جميلة يا حبيبي ما دمنا سويًا.

قالتها ثم شردت، جلس إلى جوارها، قائلًا في ود:

- ما بك يا عمري؟

أطرقت هنيهة، فرفع رأسها ألفى عينيها مغرورقتين بالدموع، قبل جبينها، ثم ضمها إلى حضنه:

- لا تخافي ولا تقلقي من شيء في هذه الدنيا ما دمت إلى جوارك، فلا تلقي بالًا لأي مشكلة.

ثم داعب أنفها بيده، مردفًا:

- على الأقل في هذه الليلة يا عروسة.. إنه يوم عرسنا.

سالت بضع عَبَرَات دافئة على خديها مسحهما برفق، ونظر في عينيها متسائلًا عن سبب تلك الدموع، فأجابت منكسرة:

- حزينة يا (أحمد) على خسارتي لأهلي، ورفضهم حضور فرحي.. أشعر بأني صرت وحيدة.. كنت أتمنى أن تكتمل فرحتي بهم.

ظل ينظر في عينيها، غضت من طرفها، تفر من نظراته اللائمة، فغمغم:

- (ماليكا).. أعدك ألا تندمين على لحظة واحدة بقربي.. أقسم لك بأن أكون أنا الأخ والأخت والأم والأب والصاحب.. أعدك أن أكون كل شيء في حياتك، وسوف أعوضك عن كل ما قاسيتيه بسببي، وصدقيني أنا أيضًا عُذبت ورأيت ولاقيت الأهوال من أجل أن يجمعنا بيت واحد، لكنني لست نادمًا على كل ما أصابني، بل وكل عذاب الدنيا يهون أمام نظرة واحدة من عينيك، صدقيني لو زادوا بي العذاب ألف مرة، فأنا أرتضيه ما دام في نهاية طريق العذاب هذا ملاكي.. أنتِ.

لانت ملامحها وبش وجهها ، فقد أثلجت كلماته صدرها، ولثم هو يديها بقبلتين حانيتين، ثم أخذ يقترب من شفتيها ليقبلهما، فاستوقفته بيدها وابتعدت برأسها عنه:

- اذهب إلى الخارج.

غام وجهه، وهتف في استنكار:

- نعم ؟ أخرج؟

قالت في دلال:

- أجل أخرج.. حتى استبدل ملابسي.. و.....

- قاطعها:

- سوف أساعدك..

- سأفعل وحدي

- ولكن....

- أرجوك..

- حاضر.

أطاعها ظل منتظرًا في الخارج حتى سمع صوتها تناديه على استحياء، وحين دلف الغرفة، وجدها ترفل في قميص نوم أبيض قصير يكشف أكثر مما يستر، فدنا منها ببطء ، أمسك يدها، رفعها إلى أعلى، وأدارها حول نفسها دورتين كاملتين، ثم ضمها إلى صدره بقوة، حتى كاد يعتصرها، و......

وتنهدت (ماليكا) عند بلوغها هذا الحد من الذكريات، وبدأت تحس بمصابها وكذبه شيئًا فشيئًا، واستحالت حياتها معه إلى عذاب ما بعده عذاب، وتحول (أحمد) إلى إنسان آخر تمامًا، حين ضاقت عليه الحياة، وقُدر عليه رزقه، سمعت منه أبشع الألفاظ، اعتدى عليها بالضرب، كان يتلذذ بتضرعها إليه بأن يرفق بها، فليس

لها في الدنيا غيره، إلى أن استحال من مسلم إلى ملحد، كفر بوجود اللّٰه، أما هي فقد توجهت لحفظ القرآن، وتعلم أمور الدين، كانت أمه تحول بينهما كثيرًا وتدافع عنها، بل وتزجره من أجلها، فكانت لها بمثابة الأم الحقيقية، كذلك (علي) كان يتشاجر معه أحيانًا بالسباب، وأحيانًا اشتباكًا بالأيدي، كرهت الحياة معه، وحين ضاقت بها الدنيا، ورفضت أمها وأبيها استضافتها لأنها تخلت عنهما من أجل مَن لا يستحق، بل وتخلت عن دينها، لجأت لأختها (ليزا) التي تزوجت من (چورچ)، وهو الذي تزوجها فقط لأنها شقيقة (ماليكا)، التي كان يضمر لها كل حب الدنيا، استضافها فكان نعم الأخ، أكرمها عاملها معاملة حسنة، ولقد أمر زوجته بألا تبلغ أمها بأن (ماليكا) عندهما تجنبًا للمشاكل، كانت شقيقتها تتأذى من وجودها بالبيت، خاصة وأنها تعلم كم كان يحبها (چورچ)، لكنها لم تظهر ما يعتريها من غيرة منكرة، كذلك فهي أختها الوحيدة، ولم يعد لها أحد في هذه الدنيا سواها..

وطويت جوانحها على بؤس لا حدود له..

(9)

ناتاليا

(أنا في حاجة إليك يا أمي)

ولت عنها معرضة، شرعت تؤنب نفسها أن تستغيثها ابنتها، وهي تتجاهلها، وحين حسمت أمرها، وحاولت تمد يدها لمساعدتها، وهي تهوى من فوق جبلٍ عالٍ، أمسكت بها، لكن يدها الصغيرة الناعمة، أخذت تنزلق منها في بطء رهيب، حتى هوت من حالق، وهي تطلق صرخة هائلة تنادي أمها، كذلك أطلقت أمها صرخة ملتاعة تنادي ابنتها:

- (ماليكاااااااا)..

هبت أم (ماليكا) من نومها، مطلقة شهقة عالية، معتدلة على فراشها، وهي تهتف في رعب:

- باسم المسيح.

انتفض زوجها من جوارها فزعًا:

- ماذا هناك يا (مريم)؟

عادت تلقي برأسها على الوسادة، مغمضة عينيها، مد يده إلى الكومود المجاور له، ناولها كوبًا من الماء، رشفت منه رشفة، ثم أعادته إليه، ولم تعقب، وضع الكوب في مكانه، وعاد يكرر سؤاله، فأجابت على مضض:

- نفس الكابوس اللعين.

زفر في حنق:

- وما الذي يجب أن نفعله في مثل هذه الحالة؟

هزت رأسها حيرة، فاستدرك:

- لا تتوقعي مني أن أسأل عنها، بعد كل ما فعلته، وما حدث بسببها، صدقيني حتى وإن ماتت، فلن أبالي بشأنها، ولن أخفي عليك قولًا فقد ماتت بالنسبة لي حقًا..

رُغم ما يحدث من الأبناء، إلا أنه يبقى لهم مكان في القلب، مهما كان ما فعل، خاصة الأم، فبرغم كل شيء، ما فتئت تخاف على ابنتها، ولا يزال لها ولو القليل من الحب، لا يفنى مهما مر الزمان، ومهما طال فراقهما، هكذا قلب الأم، كانت قاسية على (ماليكا) أثناء وقوع الحدث، لكنها الآن يرق قلبها لرؤيتها..

كتمت ما يعتمل بنفسها، لكنها نظرت له شذرًا، أشاح بوجهه عنها، فأولاها ظهره، ثم اندس تحت الغطاء، لحظات وجعل يطلق شخيرًا منتظمًا مصطنعًا، كي يوهمها بأنه قد راح في نوم عميق، حتى تكف عن الكلام معه فيما لا يرغبه، أما هي فقد خاصمها الكرى، وما عاد حتى ليداعب جفنيها، ظلت تتقلب على الفرش يتنازعها القلق، غادرته، التقطت هاتفها، ثم غادرت غرفة النوم إلى الصالة، تمددت على الأريكة، نظرت إلى الساعة في الهاتف، وجدتها الخامسة والنصف صباحًا ترددت في الاتصال بابنتها (ليزا) أكثر من مرة، إلى أن حسمت أمرها واتصلت بها، لم ترد عليها غير مرة، إلا أنها وبعد أن يأست من جوابها عليها وجدتها تجيب بصوت مليء بالنعاس، يشوبه القلق:

- ماذا هناك يا أمي.

لم تستطع الأم أن تكبح جماح دموعها، التي سالت في صمت، وأخفت بكاءها في نبرات صوتها:

- اعذريني يا (ليزا) لم أستطع الانتظار للصباح.

فارق النعاس صوت ابنتها وبقي القلق:

- تكلمي يا أمي، أرعبتني، ماذا هناك.

سمعت أمها صوت زوجها، يتساءل عن سبب اتصالها في مثل هذا الوقت، فسألتها:

- كيف حال زوجك يا حبيبتي ؟

نفد صبر (ليزا)، فهتفت بلهجة من ضاقت بالصبر ذرعًا:

- دعك من زوجي يا أمي وأخبريني ماذا هناك؟ لا تجعليني أجن.

كفكفت الأم الدموع، وتمالكت نفسها، قائلة:

- اطمئني يا بنيتي، أنا شعرت بالقلق فقط....

واختنق صوتها فخرج باكيًا مبحوحًا يقطر حزنًا:

- شعرت بالخوف على (ماليكا)، فمنذ فترة وكابوس بشع يقض نومي كل ليلة عنها، فيطير النوم من عيناي، قلبي يحدثني بأنها في محنة، وأنها تحتاج إلينا، لذا وددت أن أسألك عن شأنها، ربما يكون عندك ما يريح قلبي بشأنها.

في تلك اللحظة وضعت (ليزا) يدها على سماعة الهاتف، ونظرت إلى (چورچ)، قائلة له في همس:

- تسألني عن (ماليكا)، بما أخبرها؟

ضم منكبيه، وقلب كفيه أنه لا يعلم جوابًا، وحين تأخرت في ردها، آتاها صوت أمها أكثر حزنًا وقلقًا:

- (ليزا).. لمَ لا تجيبين؟ هل أصاب أختك مكروهًا؟

أجابت في ارتباك:

- كلا يا أمي، وغلاوتك عندي هي بخير، ولا أعلم عنها شيئًا.

تساءلت في حيرة:

- من أين لا تعلمين شيئًا؟ ومن أين هي بخير؟

ثم علا صوت بكائها وهي تقول:

- أنت تكذبين على أمك يا (ليزا)، فأنت تخفين عني شيئًا، وأختك بالتأكيد أصابها مكروه، وأنت لا تريدين إخباري به.

جاوبها الصمت مرة أخرى، ثم سمعت أشتاتًا من همس بينها وبين زوجها، تغضنت جبهتها، استرقت السمع كي تفهم منهما كلمة واحدة بلا جدوى، هيهات آتاها صوت ابنتها تقول في حسم:

- حسنًا يا أمي، سأخبرك بالحقيقة..

صمتت برهة، فصاحت بها أمها في توتر أن استكملي، فتابعت (ليزا):

- (ماليكا) كانت عندنا، بعد أن سافر زوجها، وحين رجع من سوريا، جاء إلينا شقيقه (علي)، وأخذها معه.

سألت في دهشة:

- (علي)!! ولِمَ لَم يأتِ زوجها ليأخذها ؟

تنهدت (ليزا) ثم أجابت:

- لقد عاد (أحمد) من سوريا وهو يحتضر.

شهقت أمها وضربت صدرها بيدها:

- يحتضر؟ لماذا؟ وما الذي كان يفعله في سوريا هذا الحيوان؟

- إنها قصة طويلة يا أمي لا يصلح الهاتف كي أقصها إليك، حين تأتين أو آتيك أنا سأقصصها عليك.

- أنا معك ولن أغلق الهاتف إلا بعد أن تخبريني بها.

هتفت (ليزا) في عصبية:

- أنا أريد أن أنام يا أمي وسوف أحكي لك كل شيء غدًا.

صاحت الأم في عصبية أشد:

- حسنًا يا بنت الكلبة، سوف آتيك اليوم وسنذهب إليها.

وعلى الجانب الآخر اتسعت عينا (ليزا) عن آخرهما، وضعت يدها على السماعة، ونظرت إلى زوجها، قائلة بصوت خفيض:

- تريدنا أن نذهب إلى (ماليكا).. ماذا أقول لها؟

- قولي لها غدًا نتحدث...

ولم تسمع باقي جملته، حين كاد صياح أمها في الهاتف يخرق طبلة أذنها:

- أنا أحدثك يا كلبة، لِمَ لا تجيبي؟

قالت في توتر:

- حاضر يا ماما.. غدًا نتكلم في هذا.

توقفت عن الكلام حين أتاها تنبيهًا بأن أمها قد أنهت الاتصال، فنظرت إلى زوجها وعيناها جاحظتان من الدهشة:

- لقد أغلقت الخط في وجهي.

فانفجر ضاحكًا وقال:

- تستحقين أكثر من هذا، وغدًا حين تأتي، لو أبرحتك ضربًا بالنعال فلن أدافع عنك.

نظرت له في غلٍ مصطنع، وحين رفعت يدها لتضربه، اندس تحت الغطاء، فجعلت تضربه في غنج، وهو لا يزال ضاحكًا على انفعالها، ثم جذبها تحت الغطاء، احتضنها وقبل جبينها، فهدأت ثورتها الأنثوية، ولانت في يديه، ثم لم يلبثا أن غطا في النوم غطيطًا..



أفاقت (ناتاليا) من غيبوبتها، رأت وجوهًا طولية ضبابية، غير واضحة الملامح، ثم بدأت تتضح الرؤية في بطء، وأخذت في تمييز الملامح المبهمة، وجهًا واحدًا كان ينظر لها في جزع، وحين أفاقت بدا عليه الارتياح، كان لصاحبتها (ميليسا)، أما ذلك الرجل الأشقر طويل القامة، والذي يرتدي بالطو أبيض فلا تعرفه، ولا تلك السمراء البدينة، التي تتطلع إليها وعلى شفتيها ابتسامة واسعة، كانت الممرضة وهو الطبيب، عقد الأخير ساعديه أمام صدره، يتطلع إليها في ترقب، وحين فتحت عينيها، وشرعت تحدق بالوجوه في دهشة، ربت على منكبها ، مغمغمًا:

- حمدًا لله على سلامتك.

ظلت تحدق في وجهه في وجوم، ثم تساءلت في وهن وإعياء:

- أين أنا ؟ ماذا أصابني؟

دنت منها (ميليسا)، انطوت لتقبل جبينها وقد بش وجهها لعودة وعيها إليها، بعد أن ظلت لأكثر من ثلاث ساعات على وضعها هذا:

- سعيدة لعودتك يا حبيبتي.. أنت بخير والحمد لله.

هنا تذكرت (سوفيتش)، فاجتاحها الحزن مرة أخرى، ودمعت عيناها، محاولة الاعتدال، وهي تهتف باسمه منعتها صاحبتها، ولاحظت (ناتاليا) ذلك الخرطوم المتصل بيدها، فاستسلمت لـ(ميليسا)، التي ربتت على رأسها بحنان:

- اهدئي يا حبيبتي.. أي انفعال خطر عليك.

قال الطبيب في هدوء:

- سيدتي حاولي الاسترخاء، حتى ينتهي المحلول، وحافظي على هدوئك من أجل سلامتك.

ثم أشار للمرضة:

- فلتظلي أنت إلى جوارها حتى ينتهي المحلول، وسوف أعود بعد قليل للاطمئنان عليها.

والتفت إلى (ميليسا)، مستدركًا:

- لو سمحتِ تفضلي إلى الخارج حتى.....

قاطعته من بين دموعها:

- لن تذهب (ميليسا) من هنا.

قال في حزم:

- بل ستخرج فـ.......

قاطعته مرة أخرى في عصبية، حين همت (ميليسا) بالخروج، وهي تمسك بيدها:

- قلت لك لن تغادر.

أشار الطبيب بيديه مستسلمًا:

- حسنًا حسنًا.. فقط اهدئي فعصبيتك تلك خطأ.. أرجوكِ اهدئي.

ثم غادر المكان، ذهبت الممرضة إلى ركن قصي في الغرفة، ملتزمة الصمت لم تنطق بحرف واحد ولم توجه إحداهما إليها كلمة واحدة، وكأنها مجرد طيف معهما، ظلت (ناتاليا) ممسكة بيد (ميليسا)، وهي تقول في حزن:

- أشعر بروحي تنسحب مني يا (ميليسا)، لم أكن أتصور أن يضيع مني بهذه السرعة.. لم أكن أتخيل أن أفقده قبل حتى أن تبدأ حياتنا معًا.

جلست إلى مقعد مجاور للفراش، وهي لا تعرف حتى كيف تواسيها، فهي تعلم أن كل الكلام سيعجز عن كف دموعها، ولن يداوي لقلبها جرحًا، كل ما استطاعت أن تفعله هو الاستسلام لدموعها هي الأخرى، ثم قالت بعد برهة:

- إنه عمره يا (ناتاليا).. وانت تعلمين أن هذا مصيرنا جميعًا، فقولي إنَّا للّه وإنّا إليه راجعون، وادع له بأن يغفر له اللّه ويرحمه.

هزت (ناتاليا) رأسها في قوة:

- نعم إنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون، لكني حزينة على فراقه، وسُأجن لرؤيته.

وتابعت في توسل:

- أرجوكِ يا (ميليسا) افعلي شيئًا.. أريد أن أرى جث..(لم تستطع إكمالها)..أقبل يديك أريد أن أراه.

وبالفعل مالت برأسها نحو يدها لتقبلها، لكن (ميليسا) منعتها برفق، ودموعها تزداد غزارة، متمتمة بصوت تملأه الحيرة والحزن:

- وما الذي يمكنني فعله يا (ناتاليا)؟ كيف يمكننا إحضار جثته.

- لم أقل لك أن تحضريها.. أريد أن أراه قبل دفنه.

نظرت لها في ذهول، تعجز عن استيعاب ما تعنيه، ظنت أنها قد فقدت عقلها، بسبب فقدانها لحبيبها، أما (ناتاليا) تابعت:

- ابعثي رسالة لذلك الشخص الذي أرسل الرسالة عبر الواتس، بلغيه بهذا وهو سيتصرف بالتأكيد.

ثم تساءلت في قلق:

- هاتفي.. أين هاتفي؟

أخرجت (ميليسا) الهاتف من حقيبتها، أشارت لها أن تجعله معها، وأخذت تملي عليها ما تريد، والأخرى تكتب عبر الواتس:

- (أنا (ناتاليا) حبيبة (سوفيتش).. أتوسل إليك أن تريني إياه قبل دفنه، أريد أن أودعه الوداع الأخير.. أرجوك يا سيدي، ذلك رجائي.

ثـم تناولـت منهـا الهاتـف، وقامـت بتسـجيل رسـالة صوتيـة في انهيـار تـام:

- وأخـبره أني أحبـه.. أقسـم لـك أني لم أحـب غـيره.. وأخـبره أننـي سـأحيا مسـلمة وسـوف أمـوت مسـلمة.. اجعلـه يسـمع رسـالتي هـذه.. سيسـمعها.. صدقتـي سيسـمعها، وسـيكون سـعيدًا عنـد سـماعها..(وجهت رسـالتها لـ(سوفيتش))..حبيبـي.. اطمئن ولا تخش علـي مـن شـيء، فحبيبتـك قويـة، أعلم أنك تسـمعني يا أبـا (عبـد الملك)، اعلـم أني أخذت علـى نفسـي عهدًا أني لـن أتـزوج مـن بعدك، (زادت نحيبًـا).. وأنـي كنت أنتظرك لكن الموت فرق بيننـا، تلك مشيئة الله، فالحمد لله علـى كل شـيء (وجهت كلامهـا إلـى (فـراس)).. إن كنـت تحبـه بحـق، افعـل هـذا مـن أجلـه.. ومـن أجلي.

وبـح صوتهـا تمامًـا حتـى يصعـب تمييـز مـا تقـول، مردفـة في ضراعة:

- أرجـوك.. أرجـوك لا تتجاهـل رسـالتي هـذه، وإن لم تفعل فلن أسـامحك، ولن يسـامحك الله.. لن يسـامحك أبـدًا وأنـا أيضًـا.. تلـك أمانـة فلا تضيعهـا.

وسقط الهاتف من يدها، وهي تنتحب:

- آاااااااااااااااه يـا حبيبـي.. ليتنـي كنـت أنـا.. ليتنـي مـت بـدلًا منـك.

هرولـت نحوهـا الممرضـة في هلـع، أخـذت تحـاول تهدئتها، ضمتها (ميليسا) إلى صدرها، فأخذت تنتحب في حضنها، لحظات ثم بدأت تهدأ رويدًا رويدًا، أعادتها إلى وسادتها، ثـم التقطـت الهاتـف، بـدأ النـوم يهاجمهـا، فاستسلمت له (ناتاليا) من فرط تعبها، في نفس اللحظة، كان (فراس) يفتح رسالتها ويعطيها لصاحبه لترجمتها، وحين علم محتواها، اغرورقت عيناه بالدموع، متمتمًا:

- لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، كان الله في عونـك يـا (ناتاليا).. فليصبرك الله على مصيبتك، وليصبرنا على مصيبتنا.. والله لن أخذلك، ولأنه لك نصيب في رؤيته، فقد تأخرنا في دفنه لظروف خارجة عن إرادتنا، فقط ننتهي من الغُسل، وسوف أجعلك تشاهدينه.

أرسل لها رسالة باللغة الروسية بأن تنتظره بعد نصف ساعة من الآن، ثم ولج الغرفة التي يغسلونه فيها،

كانوا في نهاية الغسل، عشرة دقائق كانوا قد انتهوا منه، أمرهم (فراس) أن يغادروا ويتركوهما وحدهما، والتفت آخر الخارجين إليه، قبل أن يخرج من الباب، فقال وعلى وجهه ابتسامة واسعة:

- والله يا (فراس) هذا الرجل حسابه على خير.

هز رأسه بابتسامة باهتة دونما تعقيب، على حين أغلق الرجل الباب خلفه برفق، فعاد يلتف إلى جثة (سوفيتش) المغطاة بالكفن، طفق يفكه من عند الرأس بحرص، تأمل ابتسامته الجميلة ورائحته الطيبة، لم يتمالك جأشه، فبكي وانحنى يقبل جبينه، ثم قام بتشغيل رسالة (ناتاليا) الصوتية بجوار أذنه، وهو يقول في قرارة نفسه:

- يقولون بأن الميت يسمع حتى دبيب النملة، فأرجو من الله أن تكون تلك المعلومة حقيقية، كي تسمع ما تقوله حبيبتك (ناتاليا)، حتى تستريح في قبرك.

أعاد رسالتها الصوتية أكثر من مرة، ثم رفع صوت القرآن قليلًا، (ميليسا) في تلك اللحظة، كانت توقظ (ناتاليا) برفق لتريها رسالة (فراس)، وعلى فراشها اعتدلت بعد أن قامت الممرضة بنزع سن المحلول من

يدها بعد انتهائه، تنتظر أن يرسل لها الأخير بثًا مباشرًا لـ(سوفيتش)، لحظات وبالفعل كان (فراس) يقوم بتصويره، وحين ارتأته شهقت.. انتحبت.. اختلجت شفتاها.. اضطربت مشاعرها وتأججت:

- أترين ابتسامته يا (ميليسا)؟ أهذا يعني أنه شهيد؟

كانت تقولها بصوت متهدج، صاحبتها تهز رأسها، ولا تقوى على مقاومة العَبَرات المتلاحقة، (ناتاليا) تحتضن الهاتف بقوة ولوعة:

- آااااااااه يا حبيبي.. آاااااااه..

ثم تنظر إلى صورته بلهفة لا تضاهيها لهفة، تمطر الهاتف بالقبلات، وصاحبتها والممرضة يتابعنها بإشفاق، وقلباهما يبكي حزنًا لحالها، ولسانهما يعجز عن الكلام..



الغرفة التي يرقد فيها (أحمد) صارت رائحتها غريبة..

صارت رائحته كما الجيفة، كأنما تعفن حيًا..

تغضـن جلـد وجهـه غضونًـا متراصـة وصـارت بشـرته البيضـاء سـمراء، وشـحب وجهـه بشـدة، حتـى حاكـى أوجـه الموتـى..

أمـه تنظـر إليـه في حسـرة، وهـي تبكـي بصـوت مكتـوم، متمتمة:

- لا حـول ولا قـوة إلا بـالله.. فليسـامحك الله يـا ابنـي.. صحيـح أن مـا فعلتـه لا يغتفـر، لكـن أدعـوك يـا رب بـأن ترحمـه فإنـه ابنـي.. رحماك بـه يا رب.

سـمعت صـوت جرس البـاب، فقلبـت كفيهـا مندهشـة، تسـأل نفسـها في حيرة:

- مَن يا تُرى يأتينا الآن؟

توجهـت لفتـح البـاب، ومـا كادت تفعـل حتـى ألجمتهـا المفاجـأة، وعيناهـا تتسـعان عـن آخرهمـا، قائلـة في ذهـول:

- أنتِ ؟!

فقـد كان أمامهـا مباشـرة والـدة (ماليـكا)، مـن خلفهـا تقف ابنتهـا (ليزا) وزوجهـا (چورچ)، ارتبكوا جميعهـم من ردة الفعـل، فمـا حـدث بينهـم لا يمكـن نسـيانه، خاصـة أن

هنـاك دمـاء أريقـت مـن كلا الطرفـين، لـذا لم تكـن والـدة (أحمد) تتخيل أن يأتي اليوم الذي تطرق فيه الأولى بابها، فـلا كانـت تصـدق عينيهـا بأنهـا هـي، ولا أم (ماليـكا) نفسها كانت تتخيل أن تطرق بابهم في يوم من الأيام، تجمد المشهد قليلاً، كان فيه الصمت والدهشة هما سيدا الموقف، إلى أن أفاقت أم (أحمد) من ذهولها، قائلة في خجل:

- آسفة.. تفضلوا.

هنـا تجـرأت (ليـزا)، ورسـمت علـى شـفتيها ابتسـامة بسـيطة، قائلـة:

- صباح الخير يا طنط.

ومـدت يدهـا مـن خلـف أمهـا لمصافحتهـا، ونظـرت إلـى أمهـا، نظـرة ذات مغـزى تحثهـا علـى مصافحتهـا، بالفعل استجابت لها وحذت حذوها هي و(چورچ)، ولقد صافحتهـم في حـرارة، لكـن مـا أربكهـا هـي المفاجـأة التـي مـا كانـت لتجـول بمخيلتها يومًا، وغمغمـت (مريم) في تردد وخجـل:

- معـذرة أن جئتـاك في مثـل هـذا الوقـت، لكنـي قلقـة علـى ابنتـي فجئـت لرؤيتهـا.

دخلـوا وأجلسـتهم في غرفـة اسـتقبال الضيـوف، وهـي تقـول مرحبة:

-لقـد أنـرتم الدنيـا كلهـا، ستسـعد (ماليـكا) جـدًا بزيارتكـم.. لحظـة وأناديهـا.

شـرعت تطـرق بـاب (علـي) برفـق، أخبرتـه بأمـر ضيوفهـم، وأبلغتـه أن يجهـز نفسـه لمجالسـتهم، وأن يوقـظ (كريمة) لإعداد الفطور، ثم هرولت نحو الغرفة التي ترقد فيه (ماليكا)، حين أتاها الجواب بالإذن بالدخول، فتحت البـاب، وقالـت بوجه قد تمـلأه السعادة:

- مفاجأة لن تصدقيها.

تساءلت (ماليكا) في قلق، فقالت حماتها:

- فقط غيري ثياب نومك، لملاقاة الضيوف.

عادت (ماليكا) تتساءل:

- ضيوف؟! مَن يأتينا في مثل هذا الوقت؟

لوحت بيدها وهمت بمغادرة الغرفة:

- فقط استبدلي ثيابك، والحقيني في غرفة الضيوف.

خطت خطوتين ثم عادت أدراجها، مستدركة:

-لا تنسِ (مؤمن).

همت (ماليكا) بقول شيء ما، لكن تجاهلتها الأخرى، وتركتها تتنازعها الحيرة، أسرعت تستبدل ثيابها، ثم حملت صغيرها، توجهت نحو غرفة الضيوف، وما أن وقعت عيناها عليهم حتى ارتج عليها وألجمتها المفاجأة، وقفت في مكانها كتمثال من الرخام، ووقف الجميع بلا استثناء، يرمقونها، دون أن ينبس أحد الحضور ببنت شفة، حتى أجهشتا (ماليكا) وأمها بالبكاء، فالتقطت أختها الصغير من على صدرها، وتعانقت الأم وابنتها في لهفة واشتياق بلا حدود، والأم تقول من بين دموعها:

- أشكر الرب أنك بخير.. أوحشتني يا كلبة.

أمطرتا بعضهما بالقبلات الحارة، يتابعهم الجميع بعيون دامعة، إلا (ليزا) فقط كانت ترمق زوجها بين الحين والآخر، ما فتئت غيرتها تشتعل من أختها، لا تستطيع أن تنسى أنه كان يحبها قبل زواجهما، رُغم كل الحب الذي يعامله بها، إلا أن تلك النقطة بالذات لم ولن تُمحى من ذاكرتها.. هكذا النساء.. إن غارت من شخص ما، ظلت

تلك الغيرة عالقة بها كبقعة بالثوب، يستحيل إزالتها إلا إن بلي الثوب، أو بلي الجسد، ونقلت بصرها إلى شقيقتها التي كانت تقول:

- أنت أيضًا أوحشتِني يا أمي، كلكم أوحشتموني.

وصافحت (چورچ) ثم عانقت (ليزا)، جلسوا وجلست هي إلى جوار أمها، متسائلة:

- أين أبي ؟ لماذا لم يأتِ معكم ؟

ارتبكت أمها حارت عن الجواب، لم تلبث أن قالت:

- أبيكِ.. أبيكِ مصاب ببرد شديد، لكنه سيأتي لزيارتك قريبًا بمجرد أن يمثل للشفاء.

هزت (ماليكا) رأسها متفهمة، ثم نظرت إلى شقيقتها :

- كيف حالك يا حبيبتي ؟ أليس هناك جديد ؟

نظرت لها في ضيق، ثم أجابت باقتضاب:

- كلا.

شعرت (ماليكا) بالحرج أن سألتها مثل هذا السؤال أمام أهل زوجها، لكن سؤالها لا يشي بشيء، فتأخرها في

الحمل يسبب لها الضيق الشديد، رُغم أن الطبيب أخبرها بأنه ليس هناك ما يعوقه، لكنها فقط مسألة وقت وقدر، إذ ذاك ولجت (كريمة) بالفطور وقد تجهم وجهها، ود زوجها لو وبخها، لكنه تماسك أمام ضيوفه، في حين نظرت لها والدته عاتبة، لكنها لم تعقب، (ماليكا) جعلت تلهيهم عن هذا الموقف السخيف، بأن تناولت منها الصينية، فغادرت على الفور، ووضعت (ماليكا) الطعام على كرسي صغير، وهي تقول:

- هيا تقدموا فأنا لم أذق طعامًا منذ عصر الأمس.

بلا تردد تقدموا يتناولون بعض لقيمات صغيرات يلوكونها بغير شهية، شاركتهم (ماليكا)، أما (علي) وأمه فقد استأذنا كي يكونوا على حريتهم، ما كادا يفعلان ويوصدان الباب خلفهما، حتى قالت (مريم):

- ما الذي حدث لزوجك يا (ماليكا)؟

عبست (ماليكا) برهة، ثم تمتمت:

- (أحمد) يحتضر يا أمي.

حملقت بها والدتها، هاتفة:

- كيف حدث هذا؟ ومنذ متى ؟

كفت عن الطعام، مطرقة برأسها أرضًا:

- إنها قصة طويلة يا أمي.

ورفعت رأسها إلى أمها:

- لقد حلمت بك.

حدقت أمها بها في ذهول، قائلة:

- والمسيح أنا أيضًا حلمت بك.

- أنا حلمت أنك أتيت لزيارتي بالفعل، لذا فقد صعقت حين رأيتكم.. لم أكن لأصدق أن تفعلينها بعد كل ما حدث.

أخذوا يتبادلون الحديث لبعض الوقت دون أن يقاطعهم أحد، ثم وفي نهاية الحوار ترجتهم أن ينظروا على زوجها إرضاءً لوالدته، لكنها لم تكن تعلم أن هذا لن يرضيها أبدًا، فحاله لا يسر أحد، وبالفعل توجهوا لزيارته، ما كادوا يلجون الغرفة حتى اقشعر بدنهم من سحنته التي انقلبت على نحو ملحوظ، وتلك الرائحة النتنة التي تنتشر في الغرفة، أشاحوا بوجوههم، وسدوا أنوفهم متأففين،

فنظرت لهم أمه في ضيق شديد، فإنها أمه، عادوا إلى غرفة الضيوف، والدته ظلت ماثلة تنظر إليه في حزن، ثم تقدمت نحوه في بطء:

-واحسرتاه عليك يا (أحمد).

ثم وفي تردد قامت بتشغيل جهاز الكمبيوتر، وبصوت عذب ترددت الآيات في الغرفة، تنظر بين الحين والآخر إلى ابنها في حذر، لكنه في هذه المرة لم يحرك ساكنًا..

ليس لشيء سوى أنه يعجز عن الكلم..

يعجز عن الحركة..

يعجز عن الاعتراض..

الآن آن له أن يسمع دون أن يملك الصراخ..

فهو الآن في عالم آخر..

عالم يختلف تمامًا عن عالمنا الذي نعرفه..

إنه الآن في عالمه الخاص يلاقي الأهوال بما كسبت يداه..

يرجو ربه أن يعود ليعمل الخيرات، لكن يأتيه رد ربه في قرآن يتلى..

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

سورة المؤمنون

ظل الشيخ يرددها أكثر من مرة وكأنه يرد على أفكاره..

وظل هو يتألم ويصرخ صرخات لو سمعها بشر لصعق..

لكن لا أحد يشعر به.. حتى أمه رغم أنها تقف فوق رأسه تمامًا..

(10)

النهاية

((يا اللّه ما لنا غيرك يا اللّه))

هكذا كان يتردد الهتاف في جنازة (سوفيتش)، جنازة مهيبة الجميع يدعون له بإخلاص عجيب، وصوت همهماتهم وبكائهم المكتوم يخلع القلوب

((لا إله إلا اللّه.. الشهيد حبيب اللّه))

ما أخف حمله فوق الأعناق..

ظل (سوفيتش) يعمل بعمل أهل النار حتى لم يعد بينه وبينها ذراع، لكن وحين سبق عليه الكتاب عمل بعمل أهل الجنة..

الجميع يتضرعون إلى اللّه أن يرحمه ويغفر له ويجعل مثواه الجنة..

(ناتاليا) تصلي وفي سجودها تبكي وتتضرع إلى ربها أن يكون من أهل الجنة، وأن يجمعه بها في الآخرة، وقد تخضلت سجادة الصلاة بدموعها المسكوبة في غزارة..

تدعوا اللّه بأن يكون سبب هدايتها إلى الحق شفاعة له..

تلك الجنازة التي كانت تبث على الهواء مباشرة في كثير من القنوات الفضائية، يتابعها ملايين الناس يبكون هذه الروح الطاهرة..

لكن لو يعلمون لتمنوا جميعًا لو كانوا مكانه لما يراه من نعيم..

ليتهم يعلمون معنى الشهادة في سبيل اللّه..

وإنه لأمر لو تعلمون عظيم..



أنا أموت..

نعم هذا هو الموت ولا ريب..

الآن قد اتضحت كل الحقائق، فما كنت يومًا على الحق المبين كما كنت أتخيل..

لقد كنت وبكل أسف على ضلال مبين..

الآن حصحص الحق..

هناك إله..

تخيلت يومًا وبكل غباء وجهل أنه ما من إله لهذا الكون، رغم أن كل شيء يوحي بوجود إله عظيم، فكل المعادلات التي صنعها الملحدون لإثبات عدم وجود إله للكون دائمًا هناك طرف ناقص لإتمامها لكني لم أنتبه..

لقد كان ذلك الطرف هو البداية..

بداية كل شيء..

وبداية كل شيء لا يمكن أن تكون شيئًا إلا الإله..

فإن بحث الملحدون عن البداية وحدها، من دون أي شيء آخر، ودون التوجه لنظريات علمية وفلسفية معقدة لأدركوا أن هناك اللّه..

وما من مرة كانت تأتيني فيها آيات ربي، إلا اتخذتها سخريًا ونبذتها وراء ظهري، يالحماقتي وغبائي..

اليوم تعرض عليَّ حياتي حسرات على ما فرطت في جنب الله..

أنا الكافر بربي وبآيات ربي، آمنت بالله وكتبه ورسله لكن للأسف بعد فوات الأوان..

بعد أن انقضت كل فرص النجاة والتوبة، وطلعت شمسي من مغربها..

اليوم ما من توبة..

الآن أرى الشيطان بوضوح يسخر مني ويهزأ بي..

تمامًا كما فعل بـ(برصيصا)[١]..

الآن هو يتبرأ مني، أمرني أن أطيعه، فأطعته ثم تخلى عني ذلك الملعون..

تلك الأرض غريبة عني لم تطأها قدماي من قبل..

---

(١)برصيصا كان راهبًا من بني إسرائيل، وكان أعبد أهل زمانه وأزهدهم، ظل في صومعته يعبد الله سنين طوال، لم يعصه شيئًا، أغواه الشيطان، فزنا بامرأة وأجنها، وأمره أن يقتلها، ثم أمره أن يسجد له لينجيه من إخوتها، ففعل، فتبرأ منه الشيطان وقال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، وأُخذ فقتل على الكفر..

ما ذلك الصوت الذي أسمعه..

صوت كأنه يأتي من السماء عميقًا عاليًا، يكاد يصم أذناي..

(لقد مت بسبب أمثالكم)..

بغتة وأثناء سيري وجدت البحر أمامي وهذا الطفل الذي أبكت صورته الملايين في أنحاء العالم يتمدد على الشاطئ..

إنه الطفل (آلان كردي) البالغ من العمر ثلاث سنوات، الذي هرب مع أهله من ويلات الحرب الأهلية في سوريا، فانزلق من يد أبيه عقب انقلاب القارب بهم في عرض البحر المتوسط، ولقد توفي معه في الحادث أمه وأخوه، عثروا على جثته على أحد الشواطئ التركية..

تمامًا كما رأيته على شاشات التلفاز..

ألا ترينه يا أمي؟

ليتك تطفئين هذا القرآن فإن كل حرف منه يحرقني حرقًا..

إنه كما النار - بل كألف ألف نار من ناركم -

ليتني أستطيع أن أتكلم فأحكي لك يا أمي عن آلامي وعذابي..

ليت دموعك التي تنهمر على خديك من أجلي تكون شفيعة لي عند ربي، لكنني أعلم أنه ما من فائدة، قد سبق السيف العذل..

لقد كانت نتيجة ما فعلت وبالًا عليَّ، فلن ينفع الندم ولا اللوم بغير طائل..

ومن قلب البحر يخرج (سوفيتش) مقبلًا في بشر، ومن صدره تسيل الدماء، رائحتها ولا أجمل، وجهه مشرق كما الملائكة، رغم أني لم أرَ الملائكة يومًا، كل ما أعلمه أنهم خلقوا من نور، وها هو وجه (سوفيتش) يشع نورًا..

أسمعه يقول شيئًا..

ورغم كل آلامي، أرهفت السمع كي أميز ما يقول:

- الآن نسخر منك كما كنت تهزأ بنا.

هذا الذي كنت أنا السبب في هدايته، يسخر مني جراء حماقتي..

من الواضح أن كل أعمالي تعرض علي حسرات..

ليتني صليت وتصدقت وعملت صالحًا فيما تركت..

هناك مَن يطرق على مؤخرتي، وحين التفتُّ وجدت هذا الصغير، الذي فجرت رأسه -في سوريا أمام ناظري والديه وأخيه..

إنه أيضًا يتطلع إلى بوجهه الملائكي، ورائحته كرائحة (سوفيتش)..

رجعت للوراء صعقًا مبتعدًا عنه، ولا تزال الآيات تتلى وتحرقني، وأمي لا تزال تنظر إليَّ في حسرة..

سامحيني يا أمي، لم أكن أعلم أنه هناك حساب، ظننت أنها إن هي إلا ميتتي الأولى وما أنا بمبعوث مرة أخرى..

كنت على علم، لكنني لم أعمل به، فانطبق علي القول بأني كما الحمار أحمل أسفارًا..

كلهم ينفرون من رائحتي ووجهي الدميم، حتى (ماليكا) التي تحبني، وباعت الدنيا كلها من أجلي، تشمئز مني..

من رائحتي..

من وجهي القبيح..

أشعر بالدود يلتهم جسدي، يعيث فسادًا تحت جلدي، لقد بت كجثة متحللة، رُغم أن روحي لم تفارق جسدي بعد، حقًا كنت انتوي توبة صادقة خالصة، لكن الأمر قد استفحل، وقد عزف قلبي عن الأمل عزوفًا منكرًا، فلا توبة لي ما دامت قد أتتني المنية..

أريد أن أنطق الشهادة، لكن لمن تكون؟

صرت أجهل مَن هو ربي..

كنت أعرفه قبل تلك اللحظة العصيبة، لكنني الآن صرت أجهل مَن هو ربي..

صرت كالأعمى بعد أن كنت بصيرًا..

أذكر كل شيء بلا استثناء، إلا ربي..

(ماليكا) رُغم حبي لها وحبها لي، تجلس الآن مع أهلها تمرح وتضحك، دون أن تكترث لحالي، أنا أراها بوضوح، رغم أنها في غرفة أخرى..

عجيب هو أمر الإنسان، يتجبر في الأرض، ويهدم الجبال، يحب ويكره، يسفك الدماء، ومهما كان ترابط

الناس ببعضهم، حين تخور قواه أو يموت، يصير كمن لم يغن بالأمس..

فجأة تلاشى اليم، فقط اليم، وتحول كل شيء من حولي إلى أرض منبسطة، لا ترى لها بداية ولا نهاية، وأنا وحدي مع هؤلاء الذي ظهروا لي..

ذلك الغارق ما يزال ملقى على وجهه، وابن فراس، ينظر لي في صمت دون حراك، لكن نظرته إليّ تقطر بغضًا لا حدود له، (سوفيتش) أيضًا يتابعني في صمت..

الصمت هو سيد المكان..

ثم وبدون مقدمات جعلت الأرض من حولي تنبت الآلاف من البشر..

منهم مَن أعرفه، ومنهم مَن لم أره من قبل، لكني أعلم مَن هم..

تلك الأم الثكلى، وذلك المعتقل الذي مات ظلمًا في السجن من التعذيب، وآخر قلتلته أنا، وأخرى قتلتها، وتلك وهذا وذاك..

كل هؤلاء ضحايا أبرياء، منهم مَن قتلته أنا، والبقية كان السبب في قتلهم مَن هم على شاكلتي..

وازداد الألم، شاع في كل جسدي، ورأيت الأرض من حولي تنبت أشواكًا صلبة، وجعل كل هؤلاء الأبرياء يقتربون مني في بطء رهيب..

مخيف..

أحاطوا بي كما السوار بالمعصم، حتى ذلك الصغير الغارق، نهض من رقاده، وتوجه نحوي..

خارت كل قواي، ثم هويت أنقاضًا، تكومت على نفسي كالخرقة، انحنى كثيرًا منهم نحوي، وبدأوا يسحبونني على الشوك، الذي كان يمزق روحي تمزيقًا..

أصرخ لكن ما من مجيب..

انقذيني يا أمي..

ألا تسمعين صراخي؟ إني استنجد بك..

تلك الأشواك تمزق لحم جسدي تمزيقًا..

تنفذ إلى عظامي..

تمزق أحشائي..

ها هي روحي تُنتزع من جسدي المتهالك في قسوة..

ما كل هذا العذاب..

الآن خرجت روحي..

فجأة أطلق (أحمد) شهقة عالية طويلة، أجفلت منها أمه وخفق قلبها، ثم سكنت حركته تمامًا، فجعلت تهزه وتناديه، وضعت رأسها على صدره، لقد توقف نبضه، فأطلقت صرخة مدوية تنادي باسمه، معلنة بها عن موته، وفي سرعة البرق كان جميع مَن بالبيت من حولها ملبيين النداء..

وفي تلك اللحظة كان القارئ يردد تلك الآية، وهو لا يتمالك نفسه من شدة البكاء..

(يا حسرة على العباد)..

حقًا..

يا حسرة على العباد..



كانت جنازته عجيبة بحق..

جنازة اقتصرت على أهل بيته وزوجته، وأم (ماليكا) وابنتها وزوجها..

لقد أبى جيرانهم حتى حضور الجنازة، ولا حتى الصلاة عليه، بل ورفض أهالي المنطقة أن يذيعوا خبر موته في مكبرات الصوت بالمساجد..

حتى المُغسلين أبوا أن يُغسلوه..

لو أن الميت كلبًا لكان المشهد أفضل بكثير من جنازته..

كان جيرانه يدعون عليه في منازلهم، يتلصصون النظر إلى الجنازة، من خلف نوافذهم تتملكهم الشماتة، من هذا المشهد..

لم يكن هناك من يدعو له إلا أمه وزوجته، أما شقيقه فقد آثر الصمت، رغم ما يعتريه من حزن على سوء خاتمة أخيه..

شتان ما بين جنازتك، التي أبى أن يشيعها إلا المضطرون، وجنازة (سوفيتش) التي كان يتمنى حضورها الملايين، الذين كانوا يدعون له بالرحمة والمغفرة..

قـام شـقيقه بغسـله ومعـه (چـورچ) فقـط، ولكـم كانـا يتأذيـان مـن رائحتـه وجلـده الغامـق المتغضـن..

أم (ماليكا) كانت تدعو عليه من كل قلبها:

- اذهـب إلى الجحيـم غـير مأسـوف عليـك، لقـد أذقتنـا العذاب ألوانًا.

انتهـوا مـن دفنـه، فعـادوا إلى البيـت، وانصـرف أهـل (ماليكا) بعد أن عرضـوا عليها الذهـاب معهـم، بحجـة أن زوجها قد مـات، ولم يعد لهـا أحد في البيـت، لكنهـا أبـت وأصـرت أن تعيش مـع أم زوجهـا و(مؤمـن)..

عـام مضـى علـى وفـاة (أحمـد) عرض الكثيرون الزواج علـى (ماليكا) لكنهـا كانـت ترفض بشـدة، إلى أن أقنعتها حماتهـا بالـزواج مـن ذلك الـثري المتدين، وهو الذي كان قد عرض عليهـا الـزواج غير مـرة، واسـتجابت (ماليـكا) بعـد إلحاح شديد من أهل زوجها، الذين تعلقوا بها وابنها، لكن لـو أقنعوهـا بألا تتزوج فسـوف يظلمونها..

تزوجـت منـه عاشـت معـه هـي وابنهـا، لكنهـا لم تقطـع صلتهـا بـأم (أحمـد)، لم يمنعهـا الرجل عنها، يفع (مؤمن) رباه الرجل تربية حسنة، وصار حاملًا لكتاب الله هو وأمه..

ونسـيت أمـر (أحمـد) تمامًـا، لم يعـد لـه أي ذكـرى بداخلهـا، فهـو وصمـة لا تمحـى..

(ناتاليـا) امتنعت عن الزواج، ومن أحد الملاجئ تبنت طفلًا وأسمته كما أخبرت (سوفيتش)..

أسمته (عبد الملك)..

وفي ردهـة بيتهـا، وقفـت أمـام صـورة كبـيرة مؤطـرة لـ(سوفيتش)، وإلى جوارهـا طفل صغير، تبارك الخالق في جمالـه، تضـع يدهـا على منكبـه، وتحـدث (سوفيتش):

- لا تقلـق يـا حبيبـي، لقـد عاهدتـك أنـه لـن يكـون في حياتـي رجلٌ غيرك، فبالنسـبة لي قد مات كل رجال العـالم بموتـك.. هـذا ليس ابنـي، إنـه طفل سـوري فقد كل أهلـه، فتبنيتـه فصـار بمثابـة الابـن الحقيقـي لي..

هنـا جذبهـا الطفـل من ملابسـها، نظرت إليه في تسـاؤل فسألها في براءة:

- مامـا.. هـل أنـا لسـت ابنـك كمـا تخبريـن بابـا الـذي في الصـورة؟

انطـوت وضمتـه إلى حضنهـا، وقـد أدهشـها أنـه قـد فهـم كلامهـا، ثـم قـالت في حنـان:

- لا يا حبيبي أنت ابني وحبيبي وعمري كله، وهذا هو بابا.

عاد يسألها:

- وهل بابا يسمعنا ؟

حملته ونهضت به، وهي تقول ضاحكة:

- نعم يا حبيبي يسمعنا.

ثم غمزت للصورة كأنها من لحم ودم ستفهم دعابتها، قائلة في حزن رغم أن ظاهر ما تقوله دعابة:

- أسمعت يا (سوفيتش).. إنه ابني حبيبي الذي لن أتخلى عنه.. فأنا اليوم أم (عبد الملك).. لا تنس هذا.. أنا أم (عبد الملك)..

ثم اقتربا من الصورة وقبلاه سويًا وقلب (ناتاليا) يفيض حنانًا..

.. تمت ..

صدر للكاتب..

سلسلة روايات صدر منها عددين..

١- قدرات خاصة (رواية).. عن دار إبداع.

٢- بعث الشيطان (رواية).. عن دار إبداع.

٣ - رواية (جحيم كابجراس) عن دار جولدن بوك.